

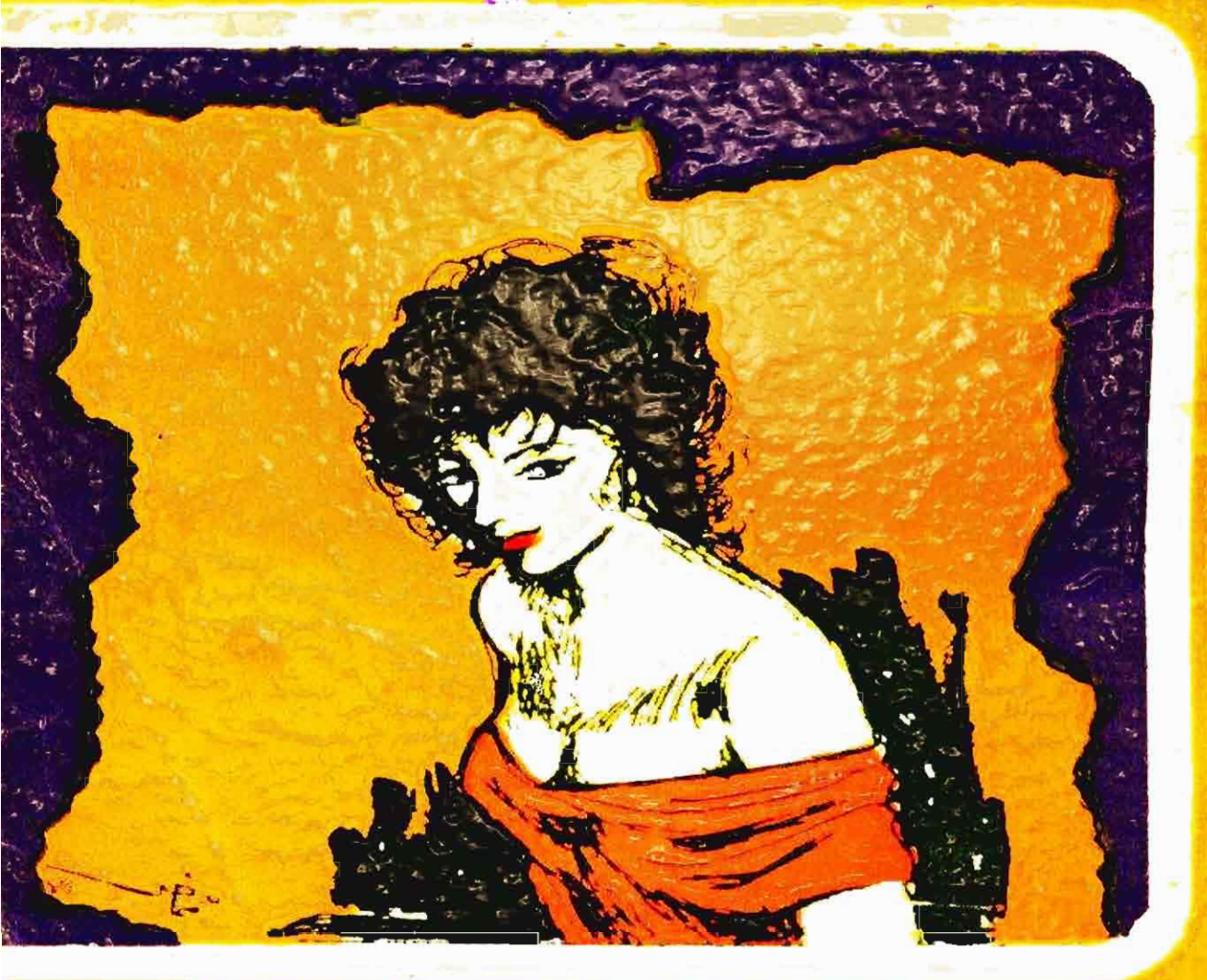
روايات الهلال

ليالي الحب والرعب

جيربيل جارسيا ماركيز
الفائزة بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٢

REWAYAT AL-HILAL
No. 419 — November 1983

معرفة



روايات الهلال

KEWAYAT AL-HILAL

صدر عن مؤسسه « دار الهلال »

العدد ٤١٩ - نوفمبر ١٩٨٣ - صفر ١٤٠٤
No. 419 - November 1983

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: موسى عيد

الاسم الكف

قيمة الاشتراك السنوي - ١٢ عددا - في جمهورية مصر العربية ثلاثة جنيهات مصرية
بالبريد العادي ، وفي بلاد الحصادي البريد العربي والافريقي وباكستان خمسة جنيهات
مصرية او ما يعادلها بالعملة الحرة بالبريد الجوي وفي سائر انحاء العالم عشرة دولارات
بالبريد العادي وعشرون دولارا بالبريد الجوي

والقيمة تسدد مقدما للقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج.م.ع. بحوالة بريدية غير
حكومية وفي الخارج بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد
المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

اسعار البيع للجمهور في البلاد العربية للاعداد العادية من روايات الهلال .
تمن النسخة في البلاد العربية للاعداد العادية اعتبارا من شهر يولية عام ١٩٨٣
فئة ٣٠٠ مليم للقارئ في مصر .

سوريا ٦٠٠ ق.س ، لبنان ٦٠٠ ق.ل ، الاردن ٤٥٠ فلسا ، الكويت ٥٠٠ فلس ،
المراق ٨٥٠ فلسا ، السعودية ٦ ريال ، السودان ٦٠٠ مليم ، تونس ٦٥٠ مليم ،
المغرب ٨٠٠ فرنك ، الجزائر ٦٥٠ سنتا ، الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة والضفة ١٥٠ ليرة ،
الصومال ٥٠ بني ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بني ، اسهمرة ٥٠٠ سنت ، اليمن
الشعالية ٥٠ بني ، اديس ابابا ٥٠٠ سنت ، باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨٠ بني ، إيطاليا
١٤٠٠ ليرة . سوسرا ٣٥٠ فرنك ، اثينا ٨٠ دراخمة . فيينا ٣٥ شلن ، فرانكفورت ٣٥
مارك . كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم ١٤ كرونة ، كندا ٢٥٠ سنتا ، البرازيل ٣٥٠
كروزيرو ، نيويورك ٢٥٠ سنتا ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠ سنت ، هولندا
٤ فلورين .



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الغلاف بريشة الفنانة
تماضر محمد تركي

ليالى الحب والرعب



جبريل جارسيا ماركيز

الفائزة بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٢



محمود مسعود



دار الهلال

مقدمة

في ابريل الماضي اسدرت « روايات الهلال » ترجمتنا لرواية « الضحية » للكاتب الكولومبي الكبير جبريل جارسيا ماركيز الحائز على جائزة نوبل في الادب في ختام عام ١٩٨٢ ، فكان ذلك حافزا على التماس مزيد من مؤلفات هذا الكاتب المجيد الذي طبقت شهرته الآفاق بين عشية وضحاها ، ومن ثم كان التوفيق الى هذه الرواية الجديدة التي لم يسبق ترجمتها الى العربية ، لكي نزيد القارئ متاعا بهذا اللون الفريد من الروايات والمجموعات القصصية التي لعل هذا المؤلف قد تفرد بها بين الكتاب المعاصرين والتي هيأت له ان يحتل مكان الصدارة في الادب العالمي الحديث .

والحق ان جبريل جارسيا ماركيز لم يظفر بجائزة نوبل عفوا ولم يقفز الى دائرة الشهرة العالمية اعتباطا ، فقد ظل السنين الطوال وهو يكافح لنشر قصة قصيرة واحدة من ثمار قلمه ولو في النطاق المحلي المحدود لوطنه كولومبيا ولما يجاوره من جاراته في امريكا اللاتينية دون ان يظفر بتحقيق غايته ، وذلك برغم ماكان يعانيه من التقلب في شتى البلاد لاستكمال تعليمه الجامعي « بدءا من الدراسة الابتدائية في قرية اراكاتكا التي ولد فيها عام ١٩٢٨ وانتهاء بمدينة بوجوتا » لدراسة الحقوق التي لم يتح له استكمالها . بيد ان الشراة الادبية التي كانت تعتمل في وجدانه تحت السطح طوال ذلك العهد لم تلبث ان الهبها مقال لناقد ادبي وصف فيه الادب الكولومبي بالتخلف والقصور عن مستوى الانتاج الادبي حتى بالنسبة لبلاد اخرى في امريكا الجنوبية ، واذا جارسيا ينبعث الى كتابة قصة عنوانها « اذعانا للقدر من جديد » ، فيؤدى نشرها في نفس المجلة الادبية الناقدة التي نفخ التراب الذي كان يوارى اسمه والى اذكاء ظموحه الالمحدود . فهو بدأب ويضنى في تأليف المزيد من القصص يجمعها ويتحين الفرص المواتية للنشر حتى يتبها له صدور أول مجموعة قصصية له عام ١٩٥٢ بعنوان : « عيون الكلب الازرق » التي انالته بعض الشهرة ولكن داخل حدود بلاده -

« كانت القصة المعنونة بهذا الاسم احدى قصص مجموعة «الضحية»
التي سلفت الاشارة اليها » .

ولكن طموحه لا يقف به عند هذا الحد . فان اشتغاله بالصحافة
في احدى الجرائد الاجنبية الكبرى التي تصدر طبعها المحلية في
مدينة بوجوتا كان فيه حافز آخر لمواصلة الانتاج الادبي وتدبيح
اول رواية له نشرت بعنوان « الاوراق الذابلة » ، مما بدا خطوة
اخرى على طريق تحقيق ماكان يصبو اليه ذاتيا لشخصية اديبة
مرموقة وقوميا ككاتب يسهم في وضع أسس نهضة أدبية لبلاده
في عداد الاداب العالمية ..

بيد أن جبريل جارسيا ماركيز كان حسن الظن بالايام أكثر مما
ينبغي . فما أن أرسلته الصحيفة التي كان يعمل فيها مراسلا لها في
باريس حتى قامت الدكتاتورية في بلاده مما اضطره الى الهجرة الى
إيطاليا في طلب الرزق ، ثم العودة الى باريس ليتعرض الى مزيد
من العناء بسبب ظروف سياسية لا دخل له فيها . ولكن هذا كله
لم يكن ليغنيه عن عزمه الغلاب ، فالف روايته المعروفة باسم « لا أحد
يكتب نكولونيل » والتي نشرت بعد عام ١٩٥٧ .

كان البحث عن لقمة العيش هو المحرك الاول الذي يدفعه الى دوام
التنقل بين مختلف الاقطار والامصار ، وهو محرك لا يمكن اغفال
اثره في ذاتية الكاتب مهما يبالغ من طموحه الادبي ومهما تعتمل في
وجدانه عناصر الالهام والانداع الفني ، فالكاتب بشر ، والعصر المادي
معوق كبير عن التفرغ لرسالة الادب والفن « باستثناء العباقةسرة
الذين هبأت لهم عزائهم واقدارهم ان ينصهروا في بوتقة المعاناة
المادية ويتولد جوهرهم من ثناياها » ، وهكذا يدفع البحث عن لقمة
العيش جارسيا الى النزوح عن فرنسا الى أمريكا اللاتينية مسرة
اخرى لكي يستقر في فنزويلا ويعمل مراسلا لعدة صحف . فهل
انساه ذلك السعي العائلي غايته المزدوجة التي كرس نفسه لتحقيقها ؟
الجواب على ذلك انه ظل يواصل الكتابة الادبية في عزم وداب بالفين
الى ان اتسقت له مجموعة قصصية ثانية « جنازة الام الكبرى »
التي نشرت قبل عام ١٩٦٠ .

وكانت المرحلة التالية من مراحل كفاح جارسيا من اجل العيش
هي انتقاله الى المكسيك عام ١٩٦١ ولكن ليشتغل هذه المرة في مجال
السينما والدعاية ، وهو مجال وان يكن اجلب للرزق الا انه لم يشأ

أن ينأى به بأى حال عن التكرار لخصيسته الأصلية وهى الأدب .
فهو يفاجئ القراء فى موطنه الأصلى وفى موطنه المكتسب بنشر روايته
الثالثة : « ساعة النحس » ، وهى التى تقدمها اليوم للقارئ العربى
بالاسم الذى اخترناه لها من واقع أحداثها : « ليالى الحب والرعب »
وبها نال الجائزة الوطنية الكولومبية للرواية .

وبعد سنوات قلائل من مراجعة النفس والعكوف على النقد
الذاتى لأعماله السابقة ، أسفر هذا كله عن تأليف رواية طالما اختمرت
فكرتها فى ذهنه واعتملت فى وجدانه وهو بعد فى مستهل شبابه
وفى أول مسيرته الأدبية الطويلة . وقد تفرغ لكتابتها زهاء عامين ،
منصرفا عن كل شىء حتى عن شئون أسرته تماما الى الحد الذى جعله
يعهد بها الى زوجته ، وكذلك لا يهل عام ١٩٦٥ الا وتصدر له رواية
« مائة عام من العزلة » ، وسرعان ما اكتسبت شهرة عالمية واعتبرت
من الشوامخ الأدبية المعاصرة حتى نفدت طبعتها الاولى سراعا فى
أمريكا اللاتينية وحدها ونقلت الى أكثر اللغات العالمية . وكان طبيعيا
أن تجاب له هذه الرواية اليسر المادى وتدرأ عنه المعاناة التى ظل
أكثر حياته يحاهد الفكك من أثقالها والتى هى فى الواقع العدو رقم
واحد للفنان المبدع .

وتنقضى فترة أخرى من حياة جبريل جارسيا ماركيز لم يكن
فيها مجدبا بل كان منصرفا الى مزيد من الإبداع حفاظا على المستوى
السامق الذى بلغه ، فاذا كان عام ١٩٧٨ نشر روايته : « خريف
البطريق » . وبعدها بثلاث سنوات صدرت روايته الأخيرة : « أحداث
موت معلن عنه » عام ١٩٨١ ، وقد وزع من طبعتها الاولى أكثر من
مليونى نسخة ، ولم تنقضى أسابيع حتى صدرت طبعتها الثانية ،
وبعد شهور قلائل ترجمت الى اثنتين وثلاثين لغة .

ومن هذا ترى أن جبريل جارسيا ماركيز لم يظفر بجائزة نوبل
عفوا وإنما كانت جهوده الدائنة ومعاناته الشاقة هى التى أثمرت
هذا الحصاد الأدبى الحافل الذى سما الى مصاف الآداب العالمية
بما قام عليه من منازع انسانية أصيلة واتجاهات فكرية مستقلة ،
وبما نما اليه من فضح للظلم والفساد الاجتماعى والسياسى
والدعوة الى الانتفاض عليها ومقاومتها بكل السبل والذرائع حتى
لا تبقى الانسانية مكبله بأغلالها أشباعا لنزوات أفراد أو مطامع

حكومات ، ومن هنا دعوته الحارة التى ينادى بها فى كل انتاجه : وهى ان مصر الانسانية سيؤول حتما الى العدل والحرية بعد طسول القهر والاضطهاد فى ظل الانظمة الاجتماعية والسياسية التى يتقلب فيها الانسان سواء فى أمريكا اللاتينية أو فى كثير من اقطار العالم بأسره .

بل ان قرار منحه جائزة نوبل استند فيما استند اليه من ذلك الى أسلوبه الفذ الذى يجمع بين الواقعية والخيال . فالحقيقة أن لجبريل جارسيا ماركيز نهجا فريدا فى تدبيج رواياته وقصصه يتسم بالبراعة فى البناء والاسلوب . فالمثن محكم قوى الحكمة حتى وان يكن حادثا عرضيا أو مناسبة عابرة ، بيد انه يربط هذا كله برباط وثيق لا منفذ اليه ولا مأخذ عليه . والاسلوب هو البساطة المتناهية ولكن الحوار هو المع والبقي ما يحتذيه كاتب عندما يدور بين مختلف الشخصوس من كافة النزعات ، واذا انت فى النهاية أمام عمل ادبى متكامل فريد فى مقوماته ، أو صورة فنية رائعة أستطاع فنان ملهم ان يخلق من ألوانها الفردية الجامده لوحة نابضة بالحياة والحيوية تستحوذ على الخيال وتبقى فى النفس أطول مدى . أما صراحته البتارة فى معالجة العلاقة بين الرجل والمرأة فلعل مردها الى التزامه كأديب صادق بتصوير شخوصه على طبائعها كنماذج بشرية تنضج بما ركب فيها من شتى الفرائز الفطرية التى لا محيد للبشر عن التأثير بها اما انسياقا وراء شهوات النفس أو ارتداعا بنوازع الفضائل أو لعله يعمد الى تصوير هذه الشخصوس فى صورها المتبدلة لى تبوء منك فى النهاية بالاستنكار والذراية مقارنة بنقائضها من الصور العاضلة المبراة من الدنيا والاسفاف والتبذل .

وبعد ، فليس المقام مقام افاضة اكثر فى تقديم جبريل جارسيا ماركيز الى القراء بعد أن عرفوه فى رواية « الضحية » ، ولسرف يزيدون به تعارفا بعد الرواية الحالية ليكونوا أكثر شوقا الى الاستزادة من روائعه التى أشرنا اليها فى هذه العجالة ، والتى يسرنا ان نتحفه بترجمة أربع روايات أخرى منها باذن الله وتوفيقه فيما يلى من « روايات الهلال » ، والله المستعان .

محمود مسعود

الفصل الأول

جلس الاب انجيلو فى فراشه وراح يفرك عينيه بعظام يديه ، ثم أزاح « ناموسية » البعوض المطرزة ولبث جالسا فوق المرتبة العاربة يفكر مدى الفترة الزمنية اللازمة لكى يستوعب انه لا يزال على قيد الحياة ولكى يتذكر تاريخ اليوم وما يقابله من التاريخ المطابق فى تقويم القديسين .. كان يوم الثلاثاء الرابع من شهر أكتوبر ، وقد غمغم لنفسه هامسا : يوم القديس فرنسيس الاسيزى ...

وما لبث أن ارتدى ملابسه دون أن يغتسل أو يصلى ... كان مبسوط الجسم مورد الوجه ، فى حركاته سكيئة ودعة .. وبعد أن ارتدى ثوبه الكهنوتى رفع رتاج الباب المؤدى الى الحوش وفتحه ، فملأت خياشيمه رائحة المطر المختلط بذرات السنابل الطائفة ..

كانت غرفة النوم تتصل بالكنيسة عن طريق شرفة داخلية تحف بها اصص الزهور ويكسو أرضها قريميد مفكك بدأت تنمو فى فرجاته أعشاب أكتوبر .. وعندما دخل الى الكنيسة يمم من فوره شطر برج الناقوس دون أن يعرج على الساعة الكبرى ، بعد أن اطمأن بنظرة عابرة الى امتلاء زنبركاتها بما يكفى اسبوعا آخر .. وسرعان ماهاجمته اسراب البعوض ، فسحق بعضها فوق رقبتة بضربة عنيفة ومسح يده فى جبل الناقوس .. وقد انتظر برهة حتى انبعثت دقائق الساعة الكبرى مؤذنة بالخمسة صباحا ، وعلى الاثر لف جبل الناقوس حول معصم يديه ، فتردد رنينه مدويا يدعو اهل البلدة الى قداس الصباح .. وعلى الرغم من أنه جاوز الحادية والستين من عمره وكان المجهود الذى يتطلبه دق الجرس كثير المشقة لديه ، الا انه كان يحرص دائما على اتمام نداء القداس بشخصه ، وكان يجد فى هذا مايقوى معنوياته ..

وفيما كانت الاجراس تدق دفعت نرينيداد التلميذة المترهبة باب الشارع ودخلت واتجهت راسا الى الركن الذى أعدت فيه مصائد الفئران ... فوجدت شيئا ادخل الاشمنزاز والفرح الى نفسها فى آن واحد : مذبة صغيرة ...

فتحت المصيدة الاولى ، وأمسكت بالفأر الصغير من ذنبه بين
اينامها وسبابتها ، ثم طوحت به في داخل علبة الورق المقوى .. وكان
الاب انجيلو قد فتح توا الباب المؤدى الى الميدان ، فبادرته قائلة :

— صباح الخير يا ابتاه ...

لم يسعفه صوته بالرد لأول وهلة .. فان وحشة الميدان ومشهد
اشجار اللوز الهاجعة في المطر وجمود حركة البلدة في فجر أكتوبر
هذا الكالـح — كل أولئك انبعث في نفسه شعورا بالاحباط .. بيد
انه عندما ألف صوت المطر واستطاع أن يسمع على البعد صوت
مزمار باستور يتردد من أقصى الميدان جليا وشبه أثري — عندئذ
فقط تفتن الى تحية ترينيداد ورد عليها بمثلها ... ثم قال لها :

— ان باستور لم يكن بين العازفين في تجمعهم الليلي ...
فردت ترينيداد قائلة وهى تقترب بعلبة الفئران الميتة :

— لا ... كانوا كلهم يعزفون الجيتار ...

فقال الاب :

— انهم أمضوا حوالى ساعتين يعزفون لحنا تافها يقول مطلع
فيما أظن : « سوف يعلو البحر بدموعى ... » ! ..
فقالت :

— هذه أغنية باستور الجديدة ...

لم يتمالك الأب وهو واقف لدى الباب أن خامرته هزة انفعال
طارئة .. فعلى مدار السنين الطوال كان يسمع عزف مزمار باستور
على مبعدة مربعين سكنيين وهو يجلس صباح كل يوم في الخامسة
مستندا الى عـش حمامه لممارسة العزف ... والواقع أن هذا كان
هو التركيب الميكانيكى للبلدة الذى بدور بدقة وانضباط : أولا دقات
الساعة الكبيرة الخمس ، ثم دقات الناقوس الاولى مؤذنة بقداس
الصباح ، ومن بعدهما عزف باستور فى حوش داره على المزمار يظهر
به جو الحوش المشبع بقدر الحمام ، فيضفى فيما حوله أنفـاما
شجبة نورانية ...

ووافق الاب من تأملاته قائلا :

— الموسيقى جيدة ، لكن الكلام الغنائى تافه ...

وانثنى فى مكانه وهو يبتسم لما أبدى من تعليق ، وانتقل لاضاءة
المذبح .. فتبعته ترينيداد .. كانت تلبس رداء طويلا أبيض ذا أكمام
ضافية ، مع الوشاح الحريري الأزرق الذى يمين رتبتها ... وكانت

سوداء العينين مقرونة الحاجبين .. ومالبث القس أن قال لها :
- انهم طافوا فيما حولنا طوال الليل ... أعنى العازفين ..
فردت ترينيداد بانزعاج شديد وهى تهز الفئران فى العلبة :
- خصوصا عند دار « مارجوت راميريز » .. لكن فى الليلة
الماضية كان هناك شىء آخر أحسن من عزف الجيتار ..
- وماذا كان ؟...
- « اللصقات الفاحشة » !..
وشغفت ردها بضحكة عصبية ...

على مبعدة ثلاثة بيوت كان « سيزار مونتيرو » يحلم بالفيلة ..
لقد شاهدها فى دار السينما يوم الاحد .. وكان المطر قد نزل قبل
نصف ساعة من نهاية الفيلم ، ولكن صور الفيلة عادت تدور فى الحلم
... وتحت وطأة الرعب الذى استولى على الاهلين وهم يفرون
مذعورين أمام هجوم الفيلة ، ترحل سيزار بكل جسده الضخم
ملتصقا بحائط غرفة النوم الابيض ... فدفعته زوجته برفق دون
أن يستيقظ أحدهما ، فما كان منه الا أن غمغم بكلمات مبهمه ، وارتد
عائدا الى ضجعته الاولى .. وأخيرا استيقظ ... وفى تلك اللحظة
كانت الدقة الثانية لناقوس القداس ...

كانت الغرفة ذات منافذ كبيرة محجوبة ، والنافذة المطلة على
الميدان يعلوها أيضا ستار سميك تخالطه زهور صفراء ... وكان
فوق الخوان اللبلى الصغير راديو متوسط ومصباح وساعة ذات
قرص مضىء ... وعلى الناحية الاخرى كان ثمة دولاب ملابس ضخم
ذو مرايا ... وفيما كان « سيزار مونتيرو » يلبس حذاء الركوب
ترامى الى سمعه عزف مزمار باستور ، وبدت له اربطة الحذاء
الجلدية الخام متيبسة بالطين ، فأخذ يشدها بقوة بأصابع يده
المطبقة التى كانت أشد خشونة من جلد الاربطة ... ثم انثنى الى
المهراز يلمسه ، بيد أنه لم يجده تحت الفراش ... فمضى يستكمل
لباسه فى الظلام محاولا ألا يحدث أقل جلبه لكيلا يوقظ زوجته ..
وبينما كان يزرر قميصه لفى نظرة على الساعة المضئية ، ثم عاد
الى البحث عن المهمازين تحت الفراش .. بحث عنهما أول الامر
بيديه ، ثم جثا على اربع وأخذ ينبش تحت الفراش ... فاستيقظت
زوجته ، وقالت :

- عما تبحث ؟ ..

- عن المهمازين ...

فردت قائلة :

- انهما معلقان خلف الدولا ب .. انك وضعتهما بنفسك يوم

الاحد ..

واذاحت « ناموسية » البعوض واضاءت النور .. فنهض قائما
وقد تملكه الخجل ... كان ضخيم الجسم ، عريض المنكبين ، مكتنز
الكتفين ، ولكن حركاته كانت طيعة مرنة ، حتى وهو لابس حذاء
الركوب الثقيل .. وكان في صحة عارمة ، ولم تبد عليه دلائل تشير
الى سنه بوضوح ، ولكن جلد رقبته شف عن تجاوزه الخمسين ..
وفي النهاية جلس على حافة الفراش لكي يضع مهمازيه ...
قالت له ، وهى تشعر بأن عظامها الموجعة قد امتصت رطوبة
الليل :

- لا يزال المطر يسقط .. اننى اشعر وكأننى اسفجة ..

كانت نحيلة عظيمة ذات أنف حاد ، وبدا كأنها لم تستيقظ تماما ،
وحاولت أن تتين المطر من خلال الستار ... أما سيزار مونتيرو فقد
استكمل وضع المهمازين ، ونهض قائما واخذ يذرع الارض مرات ،
فكان البيت يرتج بقوة المهمازين ..
وقال لها أخيرا :

ان الجفوار « النمر الامريكى » يسمن فى أكتوبر ...

لكن زوجته ، التى كانت منتشية بعزف مزمار باستور ، لم تكن
مليقة اليه بسمعها ... وعندما اقبلت عليه بنظرها من جديد كان
يمشط شعره أمام مرايا دولا ب الملابس وهو منفرج الساقين خافض
الراس ، اذ كانت قامته أطول من المرايا ...

ولما رآها تتابع أغنية باستور بصوت خفيض قال لها :

- انهم كانوا يرددون هذه الاغنية طول الليل ..

فقالت :

- انها رائعة ...

وفكت شريطا من رأس السرير وضمت شعرها عند ظهر عنقها
وغمغمت متنهدة مرددة مقطعا من الاغنية : « ... سوف أبقى فى
احلامك حتى الممات » ... بيد أنه لم يلتفت اليها ، وعمد الى درج
فى الدولا ب يضم الى جانب بعض الحلى ساعة نسائية وقلم حبر ،

فاخذ منه لفافة اوراق بنكنوت استخلص اربعا منها ورد الحافظة الى مكانها .. واخيرا وضع في جيبى قميصه ست رصاصات لبندقية صيد قصيرة ، وقال لها :

- اذا استمر سقوط المطر ، فلن أرجع يوم السبت ..

وعندما فتح الباب المؤدى الى الحوش توقف يرهة في المدخل يستنشق هواء أكتوبر الكثيف وعيناه تعتادان الظلمة .. وقد هم باغلاق الباب حين انبعث رنين جرس الساعة المنبهة في غرفة النوم . فوثبت زوجته من الفراش بينما وقف هو مترددا وبده على الاكرة ، الى أن أبطلت رنين الجرس ... وعندئذ نظر اليها لأول مرة ، ساهما وقال :

- في الليلة الماضية حلمت بالفيلة ...

واخيرا أغلق الباب ومضى لاسراج البفل ..

واشتد هطول المطر قبل الدقة الثالثة لناقوس الكنيسة .. وهبت ريح سطحية انتزعت الاوراق الاخيرة العطنة لاشجار اللوز في الميدان ... وانطفأت أنوار الشارع ، ولكن البيوت مازالت موصدة .. وساق سيزار مونتيرو البفل من تحته خلال المطبخ ، وصاح بزوجته دون أن يترجل لكى تأتية بالمعطف الواقى من المطر .. وأنزل عن كتفه بندقية الصيد القصيرة المزودة وشدها أفقيا الى سيور السرج .. وعندئذ لاحت زوجته فى المطبخ بالمعطف الواقى ، وقالت له بغير يقين :

- انتظر حتى يتشكف الجو ...

فارتدى المعطف صامتا ، ثم اتجه بنظره الى الحوش قائلا :

- لن يتكشف الجو حتى شهر ديسمبر ...

فرافقته ، ونظرتها المحدقة متجهة شطر الطرف الآخر للشرفة .. وكان المطر يدق الصفائح الصدئة فوق السقف ، ولكنه مضى وهمز البفل ، واضطر أن يحنى رأسه وهو فوق متنه ليتفادى الاصطدام بأعلى الباب ... حتى اذا خرج الى الحوش كانت القطرات المنحدرة من أفرز السقف تنهال على ظهره دافقة .. وعند الباب الامامى صاح دون أن يدير رأسه :

- أراك يوم السبت ..

فردت بقولها :

- أراك يوم السبت ...

وكان الباب الوحيد المفتوح على الميدان هو باب الكنيسة .. وتطلع سيزار مونتيرو الى السماء ، فرأها مثقلة دانية .. فرسم علامة الصليب ثم همز البغل وجعله يدور مرات على فائتيه الخلفيتين الى ان تحقق للحيوان موطن آمن فوق التربة اللزجة ... وكان ذلك عندما وقع نظره على قصاصة الورق التي الصقت بباب بيته ..

قرأ القصاصة دون ان يترجل .. وكان الماء قد اذاب الالوان ، بيد ان النص الذي كان مكتوبا بفرشاة بأحرف مطبعية خشنة كان مقروءا ... ومالبث سيزار مونتيرو أن قاد البغل الى الحائط ، وانتزع القصاصة ، ومزقها اربا ...

وبخفقة من اللجام جعل البغل يسير جنبا بما يكفى لساعات طويلة ... وخرج من الميدان مجتازا شوارع ضيقا متعرجا تحف به بيوت من طوب محروق بفعل حرارة الشمس فتحت أبوابها بعد أن طردت عنها أخريات النوم ، ورائحة القهوة تنفذ الى أنفه ...

على أنه بعد أن جاوز آخر البيوت وراه مالبث أن أدار البغل على أعقابيه ووجهه بنفس الخبب المتمهل ليعود الى الميدان ويتوقف أمام بيت باستور ... وهناك ترجل ، وحمل البندقية القصيرة وربط البغل الى الدعامة وهو يؤدي كل حركة بتوقيتها المحكم ...

لم يكن باب البيت موصدا ، ولكن كان مسندا عند قاعدته بصدفة بحرية ضخمة ... فدخل سيزار مونتيرو الى غرفة المعيشة الصغيرة القاتمة ... فسمع رنة حادة أعقبها سكون مترقب .. ومر في طريقه بأربعة مقاعد صفت حول مائدة صغيرة يعلوها مفرش من الصوف وزهرية بها ورود صناعية .. وفي النهاية توقف أمام باب الحوش ، ورفع عن رأسه غطاء المعطف، الواقى ، وأزاح باللمس صمام الامان فى بندقية الصيد ، ثم نادى بصوت هادئ تكاد تشوبه المودة :

- باستور !..

لاح باستور فى اطار الباب وهو يفك فم الزمار ... كان فتى نحىلا فارعا بدا شاربه الوليد مقلما بمقص ... وعندما وقع نظره على سيزار مونتيرو وقد ثبت عقبيه على الارض والبندقية عند مستوى الوسط مصوبة اليه ، لم يتمالك أن فغر فاه ... لكنه لم يقل شيئا ... وانما سحب وجهه وابتمسم ... فما كان من سيزار مونتيرو الا ان رسخ عقبيه فى الارض ، ثم حمل كعب البندقية عند اعلى الفخذ ، ثم شد على أسنانه ، ثم حرك الزناد ...

لقد ارتج البيت بصوت الانفجار ... ولم يعرف سيزار مونتيرو على وجه اليقين هل كان قبل الجلبة أو بعدها أن أبصر باستور يجر نفسه عند الجانب الآخر للباب بحركة دودية بين كوم من ريش الحمام الدامى ...



بدأ العمدة يستسلم النوم فى اللحظة التى انطلق فيها المقدوف النارى ...

لقد أمضى ثلاث ليال بلا نوم وهو فى عذاب وكرب بسبب ألم ضره ... وفى هذا الصباح ، عند الدقة الاولى لناقوس الكنيسة ، ابتلع القرص المسكن الثامن ... فزال عنه الألم ... وساعده وقع المطر على السقف المعدنى على الاستسلام للنوم . وان ظل الضرس ينبض بلا ألم خلال النوم ...

وعندما سمع صوت المقدوف النارى استيقظ منتفضا من رقاذه واختطف حزام الرصاص والمسدس اللذين كان يضعهما دائما فوق مقعد بجانب أرجوحة النوم ليكونا فى متناول يسه . ولكن نظرا لانه لم يستطع أن يسمع سوى جلبة سقوط المطر ، فقد بدا له ان ماسمعه كان لونا من الكابوس ، وعاد اليه الشعور بالألم ...

كان يشعر بحمى خفيفة .. ولاحظ وهو ينظر فى المرآة ان خده مورم .. ففتح اثناء صغيرا به فازلين بنعناع وذلك به الموضع الوجوع الذى كان متصلبا وغير حليق .. وفجأة سمع اصواتا على البعد تسرى من خلال المطر .. فخرج الى الشرفة .. فرأى سكان الشارع يجرون شطر الميدان وبعضهم بلباس النوم .. ورفع صبي منهم رأسه اليه ولوح بذراعيه صائحا دون أن يتوقف :
- سيزار مونتيرو قتل باستور ! ..

وفى الميدان كان سيزار مونتيرو يمشى وقد صوب بندقيته القصيرة الى الجمهور .. ولم يجد العمدة عناء فى التعرف عليه بنظرة خاطفة ... فأمسك مسدسه بيده اليسرى وتقدم الى وسط الميدان ... فأفسح له الناس الطريق .. ومن داخل الحانة خرج جندي بوليس ممسكا ببندقيته التى صوبها الى سيزار مونتيرو .. واذا ذلك قال له العمدة بصوت خفيض :

- لا تطلق النار يا حيوان .

وعلق مسدسه فى الحامل فوق منكبه واخذ البندقية من الجندى
وتابع سيره الى وسط الميدان ، وصاح قائلا :

- يا سيزار مونتيرو ! .. اعطنى بندقيتك ! ..

لم يكن سيزار مونتيرو قد رأى العمدة حتى تلك اللحظة ...
واذا هو يثب لمواجهة .. فشدد العمدة ملمس اصبعه على زناد
البندقية . ولكنه لم يطلق النار ...

صاح سيزار مونتيرو :

- تعال خذ البندقية ! ..

كان العمدة ممسكا البندقية بيده اليسرى واخذ يمسح جفنيه
بانيمنى .. لقد راح يحسب كل خطوة واصبعه متصلب فوق الزناد
وعينه مركزتان على سيزار مونتيرو .. وفجأة توقف ، وتكلم بلهجة
ودية قائلا :

- ارم بندقيتك على الارض ياسيزار .. لا ترتكب حماقة
اخرى ! ..

اخذ سيرار مونتيرو يتراجع ، وواصل العمدة تقدمه . واصبعه
مشدود على الزناد .. ولم تترك فى جسده عضلة واحدة الى ان
ادلى سيزار مونتيرو بندقيته ورماها على الارض .. وهنا فقط
رأى العمدة أنه لم يكن مرتديا سوى بنطلون البيجاما ، وأن العرق
كان يتفصد منه فى المطر ، وأن ضرره قد كف عن الوجود ...

فى خلال ذلك فتحت البيوت ابوابها .. وجاء جنديا بوليس
مسلحان بالسنادق يجريان الى وسط الميدان .. وتدفق الجمهور
من خلفهما ... فائثنى اليهم الجنديان وصاحا فيهم وهما يصوبان
بندقيتيهما :

- الى الوراء ! ..

وصاح العمدة بصوت هادىء دون ان ينظر الى احد :

- اخلوا الميدان ! ..

تفرق الجمهور .. واقبل العمدة على سيزار مونتيرو يفتشه
دون ان يطلب اليه نزع معطفه الواقى ... فوجد اربع رصاصات
فى جيب قميصه ، ومدية مطوية بمقبض عظمى فى جيب بنطلونه
الخلفى ... وفى جيب آخر عشر على مفكرة ، وحلقة بها ثلاثة مفاتيح ،
او اربع اوراق بنكنوت فئة مائة بيزو « ريال مكسيكى » ... وقد
ترك سيزار مونتيرو عملية التفتيش تتم دون مقاومة ... وعندما

فرغ العمدة نادى الجنديين وأعطاهما الموجودات ، ثم عهد بسيزار اليهما أمرا :

- خذوه الى الدور الثانى فى المركز ... أنتم مسئولون عنه ..
أما سيزار مونتيرو فقد خلع معطفه الواقى وأعطاه لآحد الجنديين
ثم سار بينهما دون مبالاة بالمطر أو حيرة الجمهور المتجمع فى
الميدان ...

جعل العمدة يراقبه ساهما وهي يتنعد .. ومالبث أن استدار
الى الجمع واوما « يهشهم » كأنهم دجاج ، ثم صاح فيهم :
- انصرف ! ..

ووقف برهة يجفف وجهه بذراعه العارية ، ثم اجتاز الميدان
ودلف الى دار باستور ...

كانت أم الفتى القليل مرتمية على مقعد فى وسط جمع من النسوة
يروحون عليها بصبر مؤثر .. فدفع العمدة امرأة منهن جانبا وهو
يقول :

- اتركوا لها الهواء ! ..

فاتجهت اليه المرأة قائلة :

- انها خرجت للقداس منذ فترة قصيرة ..
فقال العمدة :

- لا نأس ... أما الآن فاتركوها تتنفس ...

كان باستور ملقى عند المدخل قرب عرش الحمام ووجهه الى الارض
فوق فراش من ريش ملطخ بالدم ، وسط رائحة قوية لروث الحمام
... وكان بعض الرجال يحاولون رفع الجثة عندما لاح العمدة فى
المدخل ، فقال لهم :

- ارجعوا ...

فأعاد الرجال الجثة الى وضعها السالف بين الريش ، ثم انسحبوا
صامتين .. وبعد أن تولى العمدة ويحص الجثة أدارها فى مكانها ،
فتناثر الزغب من حولها ... وفى مستوى الوسط كان الريش أكثر ،
ملتصقا بالدم الذى كان لا يزال دافئا حيا .. فدفع الريش بيديه ،
فألقى القميص ممزقا و « أبزيم » الحزام مكسورا .. ومن تحت
القميص أبصر الاحشاء بارزة ... ذلك وقد توقف النزيف ..

وقال أحد الرجال :

- كان السلاح بندقية الصيد المزدوجة ...

وفي النهاية عاد العمدة الى الوقوف ... فمسح الريش الدامى
فى دعامة عرش الحمام ومازال ينظر الى الجثة ، واختتم بمسح يده
فى منطلون بيجامته ، وقال للمجمع :

- لا تحركوه من مكانه ...

فقال واحد منهم :

- سنتركه سمددا هكذا !..

فرد العمدة قائلا .

- لابد لنا من اعداد تصريح الدفن ..

ومن داخل البيت بدأ نواح النساء .. فشق العمدة طريقه بين
الصراخ والعيول والروائح الخائفة التى بدأت تفسد جو الغرفة ...
وعند باب الشارع التقى بالاب انجيل ، الذى هتف متحيرا :

- مات !..

فرد العمدة قائلا :

- مية خنزير ! ..

كانت الببوت حول الميدان قد فتحت ابوابها .. وتوقف المطر ،
ولكن السحب الكثيفة كانت تحلق فوق السقوف دون أدنى فرجة
بينها تطل منها الشمس .. واستوقف الاب انجيلو العمدة ممسكا
بذراعه قائلا :

- ان سيزار مونتيرو رجل طيب .. لابد ان ماحدث كان نتيجة
ارتباك ولبس ..

فقال العمدة متبرما :

- انا اعرف هذا .. لا تقلق يا أبى ، لن يصيبه شئ .. ادخل
البيت ، حيث هم فى حاجة الى وجودك ...

وابتعد مسرعا ، وأمر رجال البوليس برفع الحراسة .. فما
كان من الجمع الذى ظل حتى هذه الآونة مبعدا الا ان جرى أفراد
مسرعين الى بيت باستور .. وذهب العمدة الى الحانة حيث كان
جندي فى انتظاره مع ملابس نظيفة ، هى زيه العسكرية برتبة ملازم
أول ...

وفي الاحوال العادية لم يكن المشرب يفتح فى هذه الساعة .. أما
فى هذا اليوم ، وقبل الساعة صباحا ، فقد كان مزدحما ... كان
الرجال الجالسون أربعة أربعة حول الموائد أو عند المقصف يشربون
القهوة ، ومعظمهم ما زالوا مرتدين سترات البيجاما و «الشيشب» ..

وخلع العمدة ملابسه أمام الجميع وجفف نفسه بينظلون البيجاما
ثم بدأ يرتدى زيه صامتا وهو يستمع الى شتى « التعليقات »
... وعندما غادر المكان كان على دراية تامة بتفاصيل الحادث ..

وصاح في الجميع وهو لدى الباب :

- احذروا ... أى واحد يثير البلدة ضدى سيكون حسابه
عسيرا ! ..

وخرج الى الشارع المرصوف بالاحجار دون أن يسلم على أحد ،
ولكنه كان مدركا لحالة الانفعال التى سادت البلدة ... كان فى سن
الشباب ، مسترخى الحركات ، وتجلّى فى كل خطوة يخطوها هدفه
فى اشعار الجميع بوجوده وتوطيد سلطته ...

ولما كانت الساعة السابعة بدأت الزوارق الكبيرة التى تحمل
السلع والمسافرين ثلاث مرات كل أسبوع تطلق صفاراتها وهى تبحر
رصيف الميناء النهري ، دون أن يهتم أحد بها مثلما كانوا يفعلون فى
الايام الاخرى .. وعرج العمدة فى طريقه على « البواكى » حيث بدأ
التجار الشرقيون يعرضون سلعهم ذات الالوان الزاهية .. وكان
الدكتور أوكتافيو جيرالدو الطبيب الذى لا يعرف أحد سنه والمجعد
الشعر يراقب الزوارق وهى تبتعد فى النهر من باب مكتبه ، وكان
هو أيضا يرتدى سترة البيجاما وينتعل « الشبشب » ... فلما
راه العمدة قال له :

- يادكتور ... البس ملابسك لكى تقوم بالكشف الطبى على
الميت ...

نظر اليه الطبيب متشككا ، وقال وقد كشف عن صف من أسنان
بيضاء متينة :

- اذن فنحن نقوم بمثل هذا الكشف الآن ؟!
ثم أردف قائلا :

- هذا تقدم عظيم ، فيما يظهر !..
حاول العمدة أن يبتسم ، ولكن حالت دون ذلك حساسية خده
... وغطى فمه بيده .. فسأله الطبيب :
- مالك ؟..

- ضرس لعين !..

وبدا الطبيب امل الى التبسط فى الحديث ، ولكن العمدة كان
مستعجلا .. فمضى فى طريقه .. وعند نهاية رصيف الرسى طرق

باب بيت كانت جدرانها من الاقصاب السمكية وسقفها من النخيل
الذى تدلى حتى كاد يلامس مسنوى الماء .. ففتحت له الباب امرأة
ذات بشرة مخضرة وحامل في الشهر السابع وهى حافية .. فنحاهما
العمدة جانبا ودلف الى غرفة المعيشة القائمة ، ونادى :

- ايها القاضي !..

ظهر القاضي ارКАДيو في الباب الداخلى يجر قبقابه ... كسان
يلبس بنطلونا من الكتان بلا حزام وقد شد تحت السرة والجذع
العارى ... فقال له العمدة :

- جهاز تصريحا بـدفن ميت ..

فصفر القاضي ارКАДيو في حيرة وقال :

- من أين جئت بهذه الافكار المبتكرة ؟ ..

تسعه العمدة الى داخل غرفة النوم ببطء وقال وهو يفتح النافذة
لتنقية الهواء المثقل بالنوم :

- هذا موقف مختلف .. الافضل أن يتم كل شيء بنظام ودقة ..

ومسح التراب عن يديه فى بنطلونه المكوى ، وسأل القاضي بدون
أدنى بادرة للسخرية :

- هل تعرف ما هو تصريح الدفن ؟ ..

فأجاب القاضي :

- طبعاً ...

فقال العمدة وهو يفحص يديه لدى النافذة ودون اخفاء لقصده :

- اطلب من سكرتيرك اعداد مايلرم من الاجراءات الكتابية ..

ثم النفث الى الفتاة باسطا كفيه حيث بدت آثار دماء ، وقال
لها :

- أين يمكن ان أغسل ؟ ..

فأجابت الفتاة :

- فى الخزان ...

فخرج الى الحوش ، بينما جاءت الفتاة من الصندوق الكبير
بمنشفة نظيفة وضعت بها قطعة صابون معطر ولحقت بالعمدة
فى الوقت الذى كان فيه عائدا الى غرفة النوم ونفض يديه ،
فقالت له :

- كنت آتية اليك بالصابون .

- هكذا احسن ...

واخذ المنشفة ومسح بدنه وهو ينظر الى القاضى اركاديو ساهما ،
وقال له :

- انه كان مغطى بربيش الحمام ..
وجلس على حافة الفراش واخذ يرتشف جرعات منتظمة ..
فنجان قهوة سوداء ، وانتظار حتى اتم القاضى اركاديو ارتداء
ملابسه ...

وتبعتهما الفتاة الى غرفة المعيشة ، وقالت للعمدة :
- ان هذا الورم لن يذهب حتى يخلع الضرس ...
فانتظر العمدة حتى دفع القاضى اركاديو الى الشارع ، ثم انثنى
بنظرة الى الفتاة ولمس بطنها البارز بسبابته ، قائلا :
- وماذا عن هذا الورم ؟ .. متى يذهب ؟ ..
فردت الفتاة قائلة :
- فى اى يوم منذ الآن ...

لم يقم الاب انجيلو بجولته المسائية المعتادة .. فبعد انتهاء الجنازة
توقف للحديث فى بيت لدى طرف البلدة وبقي فيه حتى الاصيل ..
وكان فى حال طيبة على الرغم من أن الامطار المستمرة كانت فى العادة
تجلب له الشعور بالالام فى عموده الفقرى ... وعندما عاد الى بيته
كانت أنوار الشارع قد أضيئت ...

كانت ترينيداد تسقى الزهور عند المدخل ... وما كاد يضىء
مصباح غرفته حتى حفت به أسراب البعوض ... وقبل أن يفلق
الباب ضحك رشاش المبيد الحشرى فى أرجاء الغرفة بقوة وهو
يعطس بتأثير الرائحة النفاذة .. وما أن فرغ حتى كان العسرق
يتفصد منه ... ثم أبدل الرداء الكهنوتى الاسود بأخر أبيض كان
يرتديه فى خلوته ، وذهب يدق ناقوس صلاة المساء ...

وعندما عاد الى الغرفة وضع مقلاة على النار واخذ يقلب قطعة لحم
مع شرائح بصل .. وبعد أن فرغ وضعها جميعا فى طبق كان به بعض
الارز المتبقى من طعام الغداء ، ثم حمله الى المائدة وجلس يأكل
متمهلا ...

على هذا النحو ظل يتناول طعامه مدى تسعة عشر عاما ، وحيدا
فى غرفته التى جمعت بين غرفة المعيشة والمكتب ، دون أن يضيق
يوما بوحدته ...

ثم جاءت ترينيداد تطلب نقودا لشراء زرنix .. فرفض القس للمرة الثالثة ، مبديا أن مصائد الفئران فيها الكفاية .. ولكن ترينيداد الحت قائلة :

- الحكاية هي ان الفئران الصغرى تسرق الجبن ولا تقع فى انصائد ... وهذا هو السبب فى أن من الافضل وضع السم فى الجبن ...

اعترف القس فى دخيلته أن ترينيداد على حق ، ولكن قبل أن يتاح له الكلام ارتفع صوت مكبر الصوت من دار السينما عبر الشارع مدويا بموسيقى صاخبة ... فقال القس :

- هل هناك عرضى هذه الليلة ...

ولما ردت ترينيداد بالايجاب قال :

- هل تعرفين اسم الفيلم ؟

فأجابت ترينيداد :

- « طرزان والالهة الخضراء » ... وهو نفس الفيلم الذى لم يتمكنوا من اتمام عرضه بسبب المطر .. هو فيلم مسموح به للجميع ...

فذهب الاب انجيل الى برج الناقوس وقرعه اثنى عشرة مرة ببطء ... فدهشت ترينيداد ، وقالت وهى تلوح بيديها وقد لمعت عيناها احتياجا :

- أنت مخطيء يا ابتاه ! .. هو فيلم مسموح به للجميع .. ثم تذكر أنك لم تدق الناقوس مرة يوم الأحد ! ..

فقال القس وهو يجفف العرق الذى سال فوق رقبته :

- لكن هذا فيه عدم مراعاة لشعور البلدة ...

وكرر هذه العبارة مرة ثانية ..

فهمت ترينيداد مقصده ، بينما عاد يقول :

- يكفى كل انسان مشهد الجنازة ... كل الرجال كانوا يتدافعون لحمل النعش ...

وصرف الفتاة لشأنها ثم أغلق الباب المظل على الميدان المهجور وأطفأ أنوار الكنيسة ... وفى عودته الى غرفة نومه لم يتمالك أن لطم جبينه حين تذكر أنه لم يعط ترينيداد النقود لشراء الزرنix .. بيد أنه نسى هذا الامر مرة ثانية قبل أن يصل الى الغرفة .. وبعد فترة قصيرة جلس الى مكتبه وتأهب لاستكمال الرسالة

التي بدأ كتابتها في الليلة الماضية .. بيد أنه لم يكد يمسك القلم حتى سمع طرقات ثلاثا على الباب ، فقال :
- ادخل ...

كان القادم مدير دار السينما ، وكانت ملامح وجهه تشف عن كرب عظيم أو خطب حلل .. وكان مرتديا بذلة من التيل الابيض وحذاء ملونا .. وعندما أوما إليه الأب أنجيلو أن يجلس في المقعد الهزاز أخرج من جيبه مندبلا بسطه بعناية ونفض المقعد ثم جلس منفرج الساقين .. وهنا فقط رأى الأب أنجيلو أن الذي لمحّه مدلى من حزام المدير لم يكن مسدسا ، بل بطارية ...
قال له القس :

- ما الذي يمكن أن أؤديه لك ؟ ..

فقال المدير بأنفاس متلاحقة :

- يا أبى .. سامحني للتدخل في شئونك .. لسكن الذي حدث هذه الليلة لأبد أن يكون نتيجة خطأ ..

أوما القس برأسه ، وانتظر ..

فمضى المدير يقول :

- ان « طرزان والآلية الخضراء » هو فيلم مصرح به للجميع .. وأنت نفسك وافقت على هذا يوم الاحد ..

حاول القس أن يقاطعه ، بيد أن المدير رفع يده إشارة الى أنه لم يتم كلامه بعد ، وقال :

- اننى تقبلت مسألة دق الناقوس عند الزوم ، لانه صحيح أن هناك أفلاما غير أخلاقية ... لكن هذا الفيلم ليس فيه ما يعيب .. وكان في نيتنا أن نعرضه للأطفال في حفلة المائتية ...

فأدى له الأب أنجيلو أن الفيلم حقيقة لا يتناول نواحي أخلاقية كما تشين من قائمة الأفلام التي يتلقاها بالريد كل شهر ، واستطرد قائلا :

- لكن عرض الفيلم هذا اليوم بالذات فيه عدم مراعاة للمشاعر بسبب حادث الوفاة الذي وقع في البلدة .. هذا نفسه جانب من النواحي الاخلاقية ..

تطلع اليه المدير برهة ، ثم هتف قائلا :

- في السنة الماضية قتل البوليس ذاته رجلا في داخل السينما وحالما رفعوا الجثة استمر العرض كأن لم يحدث شيء ! ..

فقال القس :

- الموقف الآن مختلف .. العمدة تغير ...

فرد المدير مهتاجا :

- عندما تحرى الانتخابات مرة اخرى سيعود القتل من جديد .

ولما كانت البلدة هى البلدة ، فنفس الشيء يحدث على الدوام ..

فقال القس :

- سوف نرى ..

راح المدير يتأمله بنظرة محزنة .. وعندما عاد الى الكلام وهو

يهزأ قميصه لتهوية صدره ، بدت نبرات صوته تشفى عن

الاستعطاف .. قال :

- هو الفيلم الثالث المصرح به الحميم الذى عرضناه هذه السنة

... وفى يوم الاحد تركنا ثلاثة فصول منه لم نعرضها بسبب المطر

وهناك ناس كثيرون يريدون أن يعرفوا كيف تكون نهايته ..

فقال القس :

- لقد تم دق الناقوس حاليا ..

تنهد المدير يائسا ... وانتظر وهو يدمن النظر الى وجه القس

دون أن يفكر الا فى الحر المشتد فى غرفة المكتب .. وقال أخيرا :

- اذن فليس هناك شئ يمكن عمله ؟ ..

فهز الاب انجيل رأسه ... فما كان من المدير الا أن ضرب على

ركبتيه ، ونهض قائلا :

- لا بأس .. ما باليد حياة ..

وطوى المنديل مرة أخرى ، وجفف العرق عن رقبته ، وأجال

نظره فى غرفة المكتب بحرارة ، قائلا :

- هذا المكان جهنم بعينها ! ..

رافقه القس الى الباب .. وبعد أن وضع الزلاج جلس لاتمام

الرسالة .. ولم تمض فترة قصيرة حتى توقفت الموسيقى الصادرة

من الميكروفون .. وأعقبها صوت يقول : « نود أن نذيع الى زبائننا

الكرام أن حفلة العرض لهذه الليلة قد ألغيت لان هذه الدار ترغب

هى أيضا فى مشاركة المائدة أحزانها » ...

لم يتمالك الأب انجيل من الابتسام ، بعد أن عرف صوت مدير

السينما ..

واشتدت الحرارة ، ومضى الاب انجيلو فى استكمال رسالته وهو

يتوقف بين فينة وأخرى لتجفيف عرقه .. وما كاد يذيل الرسالة
بامضائه حتى هطل المطر بفزارة دون سابق انذار .. وقبل أن
يطوى الرسالة ويضعها في المظروف اضاف الحاشية الآتية :
« عاد المطر أشد مما كان .. ومع هذا المطر وماشرحته من أمور
في الرسالة ، ففى ظنى اننا مقباون على أيام عصيبة » ..

الفصل الثانى

بزغ فجر يوم الجمعة حارا جافا بعد ليلة حب حافلة أمضاها
القاضى ارКАДيو مع زوجته ، انتهت بوقوعهما على الارض متخبطين
فى طيات « الناموسية » ..

ومهما يكن فقد تخلصا منها ونهضا متجردين تماما .. فذهب
القاضى ارКАДيو الى صندوق الملابس لارتداء مايستره ... ولما رجع
كانت زوجته قد ارتدت ملابسها واخذت فى إعادة « الناموسية »
الى مكانها .. وقد مر بجانبها دون أن ينظر اليها ، وجلس على
الجانب الآخر للفراش يلبس حذاءه وهو لا يزال متناقل الانفاس ..
اما هى فقد تبعتة واستندت على ذراعه ببطنها المتضخمة واخذت
تلمس أذنه بأسنانها ، فدفعها عنه بلطف قائلا :

- دعبنى وشأنى ! ..

فأطلقت ضحكة تشف عن فرط الصحة .. ومرة أخرى تبعت
زوجها الى الناحية الاخرى للغرفة وهى تدغدغه ... فوثب مبتعدا
وأبعد يديها عنه ... وأخيرا تركته وهى تضحك من جديد ...
ولكن فجأة تملكها الجذ وصرخت :

- أواد ياربى ! ..

فقال لها :

- ماذا جرى ؟ ..

ف قالت صارخة :

- تركنا الباب مفتوحا ! .. هل يعد هذا قلة حياء ؟ ! ..

وذهبت الى الحمام وهى تضحك بالضحك ..

لم ينتظر القاضى ارКАДيو لكى ينظر ... وخرج الى الشارع وقد
ترطب فمه بنعناع معجون الاسنان ... كانت الشمس ساطعة ...
وجلس أصحاب الحوانيت الشرقيون بجانب سلمهم يتأملون النهر
الساكن ... ولما مر بمكتب الدكتور جيمالدو حك بظفره سستار
الباب ونادى دون أن يتوقف .

- يادكتور ! .. ماهو احسن علاج للصداع ؟ ..

فرد الطبيب من الداخل قائلا :

.. هو الا يكون الانسان قد سكر في الليلة الماضية !..
وعند رعييف الرسى كانت جماعة من النسوة يتبادلن الحديث ،
بأصوات مرتفعة عن مضمون « المصق الفاحش » الجديد الذى
علق فى الليلة الماضية ... ذلك أنه مع طلوع النهار صحوا وغير
ممطر فان النسوة اللاتي ذهن الى قداس الساعة الخامسة قرأن
فى الطريق هذه القصاصة ، والنتيجة ان كل البلدة عرفت بأمرها ..
ومهما يكن فان القاضى اركاديو لم يتوقف ، وألقى نفسه يقاد الى
البار كما يقاد الثور بحلقة فى أنفه ... وهناك طلب بيرة مثلجة
وقرص اسبيرين .. وكانت الساعة قد دقت مؤذنة بالتاسعة ،
ولكن البار كان مليئا اذ ذاك ، حتى قال القاضى اركاديو لنفسه :
- ان البلدة كلها مصانة بالصداق !..

وحمل الزجاجة الى مائدة جلس حولها ثلاثة أشخاص بدا أنهم
متحIRON وهم يشربون اكوابهم ... فجلس فى المقعد الخالى
وقال :

- الا تزال هذه المشكلة مستمرة ؟ ..

- هناك أربعة ملصقات وجدت هذا الصباح ...

وقال أحد الرجال :

- ان القصاصة التى قراها كل انسان كانت عند راكيسل
كونتريراس ...

ابتلع القاضى اركاديو قرص الاسبيرين وشرب الحبة من الزجاجة
... كانت الجرعة الاولى غير سائغة ، ولكن معدته مالبت ان اعتادت
واخذ يشعر بالانتعاش ، فقال :

- وماذا كان فى القصاصة ؟ ..

فأجاب الرجل :

- هذر ... قالت القصاصة ان الرحلات التى قامت بها راكيل
هذه السنة لم تكن عن اصلاح طاقم أسنانها كما قالت ، وانما
كانت لاجراء عملية اجهاض ...
فقال القاضى اركاديو :

- لم يكونوا بحاجة الى تكبد مشقة وضع « ملصق فاحش »
... فكل انسان كان يطوف هنا وهناك بهذا الكلام ...

ولما خرج القاضى اركاديو توجه الى دار المحكمة مباشرة
فاستقبله سكرتيره العجوز الاعرج ، الذى كان منهما فى نزاع

ريش دجاجة مذبوحة ، بنظرة غير مصدقة من فوق حافة نظارته ،
وهتف قائلاً :

— لمن نسب الفضل في هذه المعجزة ؟ ..

فرد القاضي قائلاً :

— لا بد لنا من إيجاد حل لهذه المشكلة ..

فخرج السكرتير إلى الحوش وهو يجرجر « الشبشب » ، وناول
الدجاجة نصف الريش إلى طاهي الفندق من فوق الحائط .. كان
يوماً مشهود حقاً ... فلأول مرة منذ أن تقلد القاضي أركاديو وظيفته
قبل أحد عشر شهراً ، هاهو ذا يجلس إلى مكتبه ...

كانت الغرفة مقسمة قسمين بسيج خشبي .. في القسم
الخارجي قامت منصة من الخشب أيضاً ، تحت صورة « العدالة »
معضوبة العينين ويدها ميزان .. وفي القسم الداخلي وضع
مكتبان عتيقان متواجهين ، وبعض رفوف تعلوها كتب تربة ، ثم
آلة للكتابة ... وعلى الجدار الملاصق لمكتب القاضي علق صليب من
نحاس ... أما الجدار المواجه فقد علاه إطار ضم صورة مطبوعة
بالحجر لرجل سمين أصلع متشح بالوشاح الرئاسي ، ومن تحت
الصورة نقش مذهب بهذه العبارة : « السلام ، والعدالة » ...
وكانت الصورة هي الشيء الجديد الوحيد في المكتب ..

ولم يلبث السكرتير أن لف منديلاً حول وجهه وبدأ ينظف المكتبين
بممسحة ، قائلاً للقاضي :

— إذا لم تقط انفك فسوف تأخذك نوبة سعال ...

بيد أن القاضي أركاديو لم يعمل بالنصيحة ، بل مال إلى الخلف
في الكرسي الدائر وهو ييسط ساقيه لاختبار الزنبركات ، قائلاً :
— هل تتفكك ؟ ..

فأجاب السكرتير سلماً برأسه ، وأضاف قائلاً :

— عندما قتلوا القاضي فيتلا ، انكسرت الزنبركات ، لكنهم
أصلحوها بعد ذلك ...

ثم مضى بقول دون أن يرفع المندبل :

— ان العمدة ذاته أمر بإصلاح الكرسي عندما تغيرت الحكومة
وبدأ محققون خاصون يجيئون من كافة الجهات ...
فقال القاضي :

— ان العمدة يريد أن تقوم هذه المحكمة بمهامها ..

وفتح الدرج الاوسط واخرج منه مجموعة من المفاتيح وانشأ
يفتح الادراج الاخرى واحدا بعد الآخر ... كانت مليئة بالاوراق
... وأخذ يفحصها سطحيا لكي يتأكد أنه ليس بينها مايستريح
اهتمامه ، ومالبث ان أغلق الادراج وعكف على ترتيب أدوات المكتب
وهي زجاجة حر احمر واخرى ازرق ، وقلم حبر لكل زجاجة ...
ولكن الحر جف في كليهما ..

قال له السكرتير :

— ان العمدة يحبك ...

أخذ القاضي وهو يتأرجح في الكرسي الدائر يتابعه بنظرة ساهمة
وهو ينظف الحاحز ... أما السكرتير فقد راح يتأمل طويلا كأنه
يريد ألا ينسى قط صورته في هذا الوضع ، وفي هذه اللحظة ، ثم
قال مسددا اليه اصبعه :

— في نفس هذه الحالة التي انت عليها الآلة ، كان القاضي فيتيلا
جالسا ، عندما اطلقوا عليه النار ...

لمس القاضي عروقه النافذة علي صدغيه ، شاعرا بأن الصداغ
بدأ يعاوده ...

فاستطرد السكرتير مشيرا الى الآلة الكاتبة وهو ينتقل الى الجانب
الاخر للحاجز ، قائلا :

— وأنا كنت هناك ...

واستند على الحاجز دون أن يقطع حكايته ، وبيده المسحة
يسددها الى القاضي أركاديو مثل بندقيته ، حتى كان أشبه بقاطع
طريق في فيلم لرعاة القر .. وتابع يقول :

— وقف رجال البوليس الثلاثة هكذا .. وما أن لمحهم القاضي
فيتيلا حتى رفع يديه وقال ببطء شديد : « لا تقتلوني ! .. » ..
ولكن بعد لحظة خاطفة كان الكرسي في ناحية ، وهو في الناحية
الاخرى مجنولا بالرصاص ! ..

اعتصر القاضي أركاديو جمجمته بيديه .. فقد أحس بنبض
شديد في مخه .. وما لبث السكرتير أن رفع القناع عن وجهه وعلق
المسحة خلف الباب ، ومضى يقول :

— وكل هذا لانه قال وهو سكران انه جاء الى هنا لضمان
نزاهة الانتخابات ...

ظل السكرتير فترة معلقا في وضعه ذاك ، متفرسا في القاضي

اركاديو ، الذى تكوم فوق المكتب ويداه فوق معدته .. فقال له
السكرتير :

- هل تشعر بتعب ؟..

فرد القاضى بالإيجاب ، وحدثه عما كان فى الليلة الماضية ، ثم
طلب منه أن يذهب الى البار ويأتى بقرص اسبيرين وزجاجتى بيرة
مثلجتين .. وبعد أن شرب الزجاجاة الاولى لم يعد يخالجه أدنى أثر
لوخز الضمير أو الشعور بالتأثم ... وغدا صافى المزاج ...

ثم جلس السكرتير الى الآلة الكاتبة وقال :

- ماذا نحن فاعلون الان ؟..

فرد القاضى قائلا :

- لا شيء ...

- اذا سمحت لى اذن ، فاننى سأذهب الى ماريا واساعدها

فى نشف ريش الدجاج ...

لكن القاضى كان ضد هذا ، اذ قال :

- هذا مقر العدالة وليس مكان نشف ريش الدجاج ...

وأجال نظره فى مرءوسه من قمة رأسه الى أخمص قدميه فى

لون من الرثاء ، وأضاف قائلا :

- وفضلا عن هذا ، فيجب أن تتخلص من هذا « الشبشب »

وتحضر الى المكتب بالحذاء ...

وتزايدت شدة الحر مع اقتراب الظهيرة .. وما أن دقت الساعة

الثانية عشرة حتى كان القاضى اركاديو قد استهلك « ستة » أكواب

جعة ... وأخذت الذكريات تطفو فى ذهنه .. وأنشأ يتحدث بلهجة

حالة عن ماضى خلا من أسباب الحرمان ، كان يستمتع فيه أيام

الأحاد بالبحر والمقامرات الفرامية مع النساء المولدات ، وفى هذا

قال : « هكذا كانت الحياة ، ذات النعيم والمتع ! .. » .. وكان

السكرتير ينصت اليه مومئا برأسه تأييدا ...

وعندما دقت الساعة الواحدة أندى السكرتير علائم نفاد الصبر ،

قائلا :

- ان الحساء على وشك أن يبرد ...

فلم يشأ القاضى أن يدعه يقوم ، قائلا :

- ان الانسان لا يصادف دائما رجلا مثلك ذا موهبة فى بلدة كهذه

البلدة ...

فشكره السكرتير وقد اضناه الحر وجعل يتململ فى مقعده ...
وكان يوم الجمعة هذا يبدو وكأنه بلا نهاية ... ومن تحت الواح
السقف المتهبة المتقدة مضى الرجلان يتبادلان الحديث نصف ساعة
آخر بينما كانت البلدة تكاد تنصهر بالحرارة وهى مقبلة على طهى
طعامها ... ومالبث السكرتير وهو على شفا الاعياء أن أشار الى
موضوع اللصقات « الفاحشة » ، فهز القاضى اركاديو منكبيه قائلا
بنفس الاملوب المعتاد لدى الجميع :

— انت ايضا تسير وراء الشائعات المخبولة ؟ ..

لكن السكرتير لم تكن لديه أية رغبة لمواصلة الحديث بعد أن أعياه
الجوع والاختناق ، بيد أنه لم يعتبر أن مسألة اللصقات الفاحشة
هذرا وتفاهة ، وقال :

— هانحن قد شهدنا الآن أول حادث موت ... واذا استمرت
الامور تسير على هذا المنوال فستكون أيامنا القادمة عصيبة ..

وراح يحكى قصة بلدة محيت من الوجود فى سبعة أيام بسبب
« اللصقات الفاحشة » ... فقد انتهى سكانها بقتل بعضهم البعض
... والباقون منهم على قيد الحياة نبشوا قبور موتاهم وأخرجوا
عظامهم وقذفوا بها بعيدا جدا لكى يتأكدوا أنهم لن يعودوا
اليهم ...

أصفى القاضى اليه متفكها وقد بدا له أن سكرتيره من عشاق
قصص الرعب الخيالية ... وقال له :

— هذه الحكاية تشبه القصص البوليسية ! .. وحلها سهل ! ..
غير أن السكرتير قل مفتاظا :

— لم يحدث قط منذ أن كانت الدنيا هى الدنيا ان احدا استطاع
حل هذا اللغز ومعرفة من هو صاحب هذه « اللصقات الفاحشة » ! ..
فقال القاضى :

— اراهن اننى سأكتشف امره ...

— وأنا قلت الرهان ! ...

كانت « ربيكا آسيز » تكاد تختنق فى غرفة النوم الحارة فى
البيت المواجه وقد غاص رأسها فى الوسادة وهى تحاول محاولة
مستحيلة أن تنام ساعة القيلولة تلك .. وكانت تضع على صدغها
أوراق أشجار مدخنة ...

وقالت مخاطبة زوجها :

- روبرتو ... اذا لم تفتح النافذة فاننا سنموت فى هذا الحب ..
ففتح روبرتو آسيز النافذة فى اللحظة التى كان فيها القاضى
اركاديو يغادر مكتبه ..

- حاولى أن تنامى ..

قال روبرتو هذا للمرأة المفرطة الصحة التى تمددت فى الفراش
مفتوحة الذراعين تحت ظلة الحرير الوردية الوشى وهو متجردة الا
من جلباب نوم من النايلون .. وأضاف قائلا :

- أعدك أننى لن أتذكر أى شىء مرة ثانية ...
فتنهدت ...

ان روبرتو آسيز ، الذى اضي ليلة يذرع أرض غرفة النوم وهو
يشعل سيجارة من عقب سيجارة أخرى عاجزا عن النوم - كان على
وشك أن يقبض على صاحب « المصقات الفاحشة » فى الفجر ...
فقد سمع حفيف الورق أمام بيته ، وصوت اليدين المتكرر فى محاولة
لإصاق القصاصة على الحائط ... لكنه لم يتأكد الا بعد فسوات
الاولان ، وكانت القصاصة قد ألصقت ... وعندما فتح النافذة كان
الميدان مهجورا ...

ومنذ تلك اللحظة وحتى الساعة الثانية بعد الظهر ، عندما وعد
زوجته أنه لن يتذكر القصاصة الفاحشة مرة أخرى - استعانت
بكل ألوان الاقناع محاولة تهدئته ... وفى النهاية اقترحت عليه حلا
مستميئا كبرهان حاسم على براءتها : فقد عرضت عليه أن تعترف
أمام الاب انجيل بصوت مسموع وفى حضور زوجها ... وكان مجرد
تقديم هذا العرض الحافل بالمذلة والهوان كافيا ... وعلى الرغم مما
كان فيه من بلبلة وحيرة فانه لم يجسر على القيام بالخطوة التالية ،
وكان لابد له من التسليم ...

وقالت له دون أن تفتح عينيه :

- من الافضل دائما مناقشة الامور بصراحة .. كانت تكون كارثة
لو ظلت اعصابك مشدودة وصدرك منطويا على مابه ...

وأغلق الباب بالرتاج عند خروجه ... وفى أرجاء البيت الفسيح
الذى أغلقت منافذه تماما ، سمع أزيز مروحة أمه الكهربائية وهى
مستسلمة لنوم القيلولة فى الدار الملاصقة ... وقد صب لنفسه

كوبا من عصير الليمون من الثلاجة ، تحت بصر الطاهية الزنجية
الناعسة ...

وسالته المرأة ان كان يريد بعض الفداء ... فدفع غطاء اناء الطهى
... فرأى سلحفاة بحرية كاملة تطفو بزعانفها فى الماء المغلى ...
ولاول مرة لم تأخذ رعدة لفكرة القاء الحيوان حيا فى الاناء ، وأن
قلبه سيظل يخفق عندما يحتلونه مقطعا الى المائدة ..

قال لها وهو يغطى الاناء :

- لست جائعا ...

واضاف قائلا وهو زدى الباب :

- ان سيدتك لن تتناول الفداء هى ايضا .. فعندها صداع طول

اليوم ..

كان البنتان متصلين بمدخل ذى ارضية مرصوفة ببلاط أخضر ،
ومنه يستطيع المرء أن يرى اسلاك عشة الدجاج الكبيرة فى الحوش
الخلفى المشترك .. وفى جانب المدخل الخاص ببيت امه كان ثمة
أقفاص طيور عديدة معلقة فى أفريز السقف ، وأصص أزهار كثيرة
ملينة بالورود الملونة ..

وعندما اقترب من المقعد المستطيل الذى تمددت عليه ابتسمة
البالغة أحد عشر عاما لتأخذ قسطها من القيلولة ، حيثه الصبية فى
شئ من الضيق .. فقال لها بصوت خفيض :

- الوقت يقترب من الثالثة .. حاولى أن تتابعى كل شئ ..

فقال الصبية :

- اننى حلمت بقطعة من زجاج .

فلم يتمالك ان عرته رعدة خفيفة ، وقال لها :

- ماذا كان شكلها ؟ ..

فردت الصبية وهى تحاول تصوير حيوان الحلم بيديها :

- كلها من زجاج ... مثل طائر زجاجى .. لكنها قطعة ..

تملكته الحيرة حتى لم يعرف جوا . وقال لها أخيرا :

- انس هذا الحلم .. انه لا يستحق الاهتمام ..

وفى هذه اللحظة أبصر أمه عند باب غرفة نومها . فوجد فى هذا
مخلصا .. وقال لأمه :

- أراك الآن بخير ...

فردت الاملة بمرارة :

.. كل يوم اشعر بتحسّن ...
وخرجت الى المدخل لتغيير الماء في اقفاص الطيور ...
ارتقى روبرتو آسيز فى المقعد المستطيل الذى نامت عليه ابنته ..
وشبك يديه خلف عنقه واخذ يراقب بعينه الذابلتين المرأة البارزة
العظام المتشحة بالسواد التى راحت تناجى الطيور بصوت خافت ..
وجعلت الطيور ترفرف فى الماء الطازج نائرة رشاشه على وجه المرأة
بخفق اجنحتها وهى سعيدة ...

وبعد أن فرغت الام من الاقفاص اقلت عليه قائلة :
... كانت هناك أعمال تنتظرك فى الغابات ..
فقال لها :

.. لم اذهب .. كانت عندي أعمال هنا ..
.. لن تستطيع الآن ان تذهب الى يوم الاثنين ...
أيدها بنظرة من عينيه ...
ولم تلبث الارملة آسيز أن اومأت لولدها ، فتبعها الى غرفة نومها
الرحبة حيث كانت المروحة الكهربائية دائرة ... فتهاكت فى مقعد
هزاز عتيق بجانب المروحة بحالة تشف عن اعياء بالغ ... وتمدد
آسيز على السرير الفاخر .. فقالت له الارملة :

.. كيف أحوالك ؟ ..

فسألها بدوره :

.. هل تصدقن مايقوله الناس ؟ ..

فأجابت الارملة :

.. فى سنّى هذه لابد للانسان أن يصدق كل شىء ...

ثم سأله متراخية :

.. وما الذى يقولونه ؟ ..

.. يقولون أن ايزابيل ليست ابنتى ...

أخذت الارملة تهز الكرسي متباطئة ، ثم قالت :

.. ان لها انف عائلة آسيز ...

وبعد تأمل يسير قالت بجزع :

.. من يقول هذا ؟ ..

فعض روبرتو آسيز على اظافره قائلا :

.. انهم وضعوا ملصقا فاحشا ...

عندئذ فقط أدركت الأرملة أن الظلال القائمة تحت عيني ولدها لم يكن نتيجة السهر الطويل ... وقالت :

- ان المصصقات الفاحشة ليست هي الناس ...

فقال روبرتو آسيز :

- ولكنها لا تذكر الا مايقوله الناس فعلا .

مهما يكن فانها كانت تعرف كل ماكانت تقوله البلدة عن أسرتهما على مدار السنين .. ففي بيت كبير مثل بيتها ، ملئ بالخسدم والابناء والاحفاد ، كان من المستحيل على المرء أن يجلس نفسه في غرفة نومه دون أن تتسرب اقاويل الشارع واشاعته حتى الى هذا الابد ... ويبدو أن ال آسيز العتاة ، أولئك الذين ساهموا في انشاء البلدة عندما لم يكونوا أكثر من ورعاة خنازير - كانت تجري في عروقهم دماء تجتذب الاقاويل والشائعات ...

فالت له الام :

- ان كل ما يقولونه غير صحيح ، حتى لو عرفه احد الناس ...

فقال لها :

- كل انسان يعرف أن روزاريو مونتيرو كانت عشيقة باستور .. ان أغنيته الاخيرة كانت مهداة لها ...

فردت الأرملة قائلة :

- هكذا قال كل انسان ، لكن ما من احد عرف على وجه اليقين .. ومن ناحية أخرى فالمعروف الآن أن الاغنية كانت من أجل مارحوت راميريز ... فقد اتفق الاثنان على الزواج ، ولم يعرف هذا سوى الاثنين وأم باستور .. وكان من الخير لو أنهم لم يبالفوا في كتمان السر الوحيد الذي امكن كتمانها في هذه البلدة وابقاؤه طي الخفاء ! .. فنظر روبرتو آسيز الى امه نظرة درامية وقال :

- جاءت لحظة هذا الصباح خيل الى فيها اننى سألقى حتفى ..

بدا أن الأرملة لم تتأثر ، وقالت :

- ان ال آسيز قوم غيرون ... كانت هذه هي المصيبة الكبرى في هذه الاسرة ...

ظلا سامتين فترة طويلة ... وكانت الساعة قد شارفت الرابعة وبدأت الحرارة تنخفض ... وعندما اوقف روبرتو آسيز المروحة كان افراد البيت جميعا قد بداوا يستيقظون ، وامتلأ البيت بأصوات سائبة رصده الطيور ...

وقالت له الارملة :

- ناولنى الزجاجاة الموجودة على الطاولة الليلية ...

وتناولت حبتين ، وردت الزجاجاة الى ولدها قائلة :

- خذ حبتين .. سوف يساعدانك على النوم ..

فتناول الحبتين بالماء الذى بقى فى كوب امه ، وأسند رأسه الى الوسادة ...

تنهدت الارملة .. وأخلدت الى الصمت والتأمل .. وكعادتها فى تعميم الكلام عن البلدة كلها كلما فكرت فى الاسر المكدودة التى كانت تتألف منها طبقتها ، قالت :

- ان أسوأ شئ فى احوال هذه البلدة هو أن النساء لابد لهن من التزام الببوت وحدات ، بينما يذهب الرجال الى الغابات ..

وبدأ روبرتو آسيز يستسلم للنوم .. وجعلت الارملة تتأمل ذقنه غير الحليقة وأنفه الطويل ذا الفضارييف البارزة ، وسرعان ما تذكرت زوجها المتوفى .. ان « أدالبرتو آسيز » ايضا قد عرف اليأس والاحباط فى حياته .. كان ماردا من رجال الغابات .. وقد قيل عنه انه فى نفس غرفة النوم هذه قد قتل رجلا وجده مضاجعا زوجته ، وأنه دفنه حفية فى الحوش ... أما الحقيقة فكانت بخلاف ذلك .. ان « أدالبرتو آسيز » قد قتل ببندقية الصيد قردا ضبطه معلقا بالدعامة الخارجية لباب غرفة النوم وهو يكاد يلتهم زوجته بنظراته الحيوانية عندما كانت تغير ملابسها .. وقد توفى الرجل بعد ذلك بأربعين سنة دون أن تسنح له الفرصة لتصحيح هذه الفرية ..

صعد الاب انجيلو الدرجات المنحدرة فى السلم المكشوف للمركز .. ولما وصل الى الدور الثانى واجتاز الممشى وجد عند نهايته عن كذب من البنادق واحزمة الرصاص المعلقة فوق الحائط احد جنود البوليس مستلقيا على فراش عسكري يقرأ ووجهه الى أعلى ، وكان مستغرقا فى القراءة حتى لم يفتن الى وجود القس الا بعد أن حياه ... فطوى المجلة واعتدل فوق الفراش ..

قال له الاب انجيلو :

- ماذا تقرأ ؟ ...

- « تيرى والقراصنة » ...

اثنى القس بنظره الى الزنانات الثلاث المبنية بالاسمنت المسلح

والتي لا نوافذ لها وكانت موصدة بقضبان حديدية غليظة .. وعند الزلزلة الوسطى وجد جنودنا آخر نائما « بالشورت » في أرجوحة ... أما الزنزانتان الاخرتان فكانتا خاليتين ... ولما سأل الاب انجيلو عن سيزار مونتيرو أوماً جندي البوليس برأسه شطر باب مفلق قائلاً :

— هو هنا في الداخل .. انها غرفة القائد .

— هل يمكن أن أكلمه ؟ ..

فرد الجندي قائلاً :

— ممنوع الاتصال به ...

لم يصر الاب انجيلو ... وسأل ان كان السجين بخير ... فأجاب الجندي بأنه أعطى أحسن غرفة في الثكنات ، بها ضوء كاف وماء جار ، غير أنه أمضى أربعاً وعشرين ساعة دون أن يأكل ... فقد رفض الطعام الذي أمر العمدة باحضاره له من الفندق ... فقال القس :

— كان الواجب أن يحضروا له طعاماً من بيته ..

— انه لا يريد أن يزعموا زوخته ...

فغمغم القس وكأنها يخاطب نفسه :

— سأتكلم عن هذا كله مع العمدة ...

وهم أن يتجه الى نهاية الممشى ، حيث شيد العمدة لنفسه مكتباً مدرعاً ... فقال الجندي :

— انه ليس في المكتب ... هو معتكف في البيت منذ يومين

نسب وجع ضرره ...

ذهب الاب انجيلو لزيارته .. فوجده منكفئاً في الأرجوحة ، وبجانبه كرسي واثاء به ماء مالح ، ولفافة من الاقراص المسكنة للألم ، وحزام الرصاص والمسدس ... وكان خده لا يزال مورماً .. جاء الاب انجيلو بمقعد ادناه من الأرجوحة ، وقال له :

— اخلع الضرس ...

بصق العمدة الماء المالح من فمه في حوض قريب ، وقال وما زال رأسه مائلاً فوق الحوض :

— من السهل أن تقول هذا ...

فهم الاب انجيلو مقصده ، وقال بصوت خافت :

.. اذا فوضتني ، فسأكلم طبيب الاسنان ...

وتنفس بعمق ، واجتريا أن يقول :

- انه رجل يفهم ...

فقال العمدة :

- مثل بغل ... لو أراد الانسان لهشمة بالرصاص ، والنتيجة

ان يجد الانسان نفسه عند النقطة التى بدأ منها ...

تبعه الاب انجيلو بعينيه الى حوض غسل الوجه .. ففتح العمدة

الصنبور . ووضع خده المورم تحت الماء المنساب الرطب ، ولبث

هكذا برهة وقد بدأ فى نشوة ... وبعد ذلك أخذ يمضغ قرصا

مسكنا ، ثم اغترف بيده غرفة من الماء وقذف بها فى فمه ..

قال القس بالحاح :

- أقول لك بجد بإمكانى أن أكلّم طبيب الاسنان .

فأبدى العمدة اشارة تم عن نفاد الصبر ، قائلا :

- افعل أى شئ تريده يا أبتاه ...

واستلقى فى الأرجوحة ووجهه الى أعلى وقد أغمض عينيه ووضع

يديه خلف رقبتة وأنشأ يتنفس مفضبا ... ومالبث الا لم أن خفت

حدثه ... وعندما فتح عينيه من جديد كان الاب انجيلو ينظر اليه

صامتا وهو جالس قرب الأرجوحة ...

قال له العمدة أخيرا :

- ما الذى جاء بك الى هنا ؟ ..

فقال القس دون مقدمات :

- سيزار مونتيرو ... لابد للرجل أن يؤدى واجب الاعتراف ..

فقال العمدة :

- ان الاتصال به ممنوع ... غدا ، بعد التحقيق الاولى ، يمكنك

أن تأخذ اعترافه ... لابد من ترحيله يوم الاثنين ...

فقال القس :

- لم يبق له سوى ثمان وأربعين ساعة ...

فرد العمدة :

- وانا كنت أعانى من ضرسى مدة أسبوعين ...

وفى الغرفة القاتمة بدأ البعوض يطن .. ولما تطلع الاب انجيلو

من النافذة رأى سحابة وردية كثيفة تطفو فوق النهر ..

عاد يقول :

- وماذا عن مشكلة الطعام ؟ ..

ترك العمدة الأرجوحة لأغلاف باب الشرفة ، وقال :
- لقد قمت بواجبي .. انه لا يريد ازعاج زوجته ، أو قبول
الطعام من الفندق ..

وأخذ ينثر مبيدا حشريا حول الغرفة .. فبحث الاب انجيلو في
جيبه عن منديل لكيلا يعطس ، ولكن بدلا من المنديل وجد رسالة
مثنية ، فهتف من المفاجأة محاولا بسط الثنيات بأصابعه .. ثم غطي
أنفه ، لكن جهده ذهب سدى ، فقد عطس مرتين ... فقال العمدة
باسما :

- اعطس يا ابتاه .. نحن في بلد ديمقراطى !..
ابتسم الاب أنجيلو بدوره .. ثم أخرج الرسالة الملففة قائلا :

- نسيت أن أضع هذه الرسالة فى البريد ...
وعشر أخيرا على المنديل فى كفه ، فتمخط تخفيفا لآثر المبيد
الحشرى ... ذلك وما برح يفكر فى أمر سيزار مونتيرو ، اذ قال :
- المسألة تبدو وكأنك لا تطعمه سوى الخبز والماء ...
فقال العمدة :

- ان كان هذا مايريده ، فليس فى قدرتنا اجباره على الاكل ...
فقال القس :

- ان مايقلقنى أكثر هو ضميره ...
ودون أن يرفع المنديل عن أنفه راح يتابع العمدة بنظراته حول
الغرفة الى أن فرغ من رش المبيد .. فأردف قائلا :
- لابد أن يكون فى حالة ازعاج شديد اذا ظن أنه سسيموت
بالسم ...

فوضع العمدة علبة المبيد على الارض وقال :

- هو يعرف أن كل واحد كان يحب باستور ...
فرد القس قائلا :

- وكان سيزار مونتيرو يحبه أيضا ..
- لكن الذى حدث هو أن باستور هو الذى مات ...
وجعل القس يتأمل الرسالة ... وبدأ الضوء يبدو قاتما ...
ومالبث أن غمغم :

- ان باستور لم يجد فسحة من الوقت للاعتراف ...
فأضاء العمدة النور قبل أن يعود الى الأرجوحة ، وقال :

- سأكون غدا في حالة أحسن .. ويمكنك أن تبأشر عملية الاعتراف بعد اتمام الاجراءات ... هل يوافقك هذا ؟ .
فأوما الاب انجيلو موافقا ، وقال :
- كل هذا من أجل راحة ضميره ...
ونهض في رصانة .. وأوصى العمدة ألا يكثر من أخذ الاقراص المسكنة للآلم ، فرد العمدة بأن ذكره الا ينسى الرسالة ...
وأضاف العمدة قائلا :
- ومسألة أخرى يا ابتاه ... حاول بكل طريقة ممكنة ان تكلم طبيب الاسنان ...
وفي طريق القس الى النزول ، أردف العمدة وهو يتسم كما فعل من قبل :
- ان هذا كله اسهام في توطيد أسباب الامن والاستقرار ..
وعرج الاب انجيلو على مكتب البريد وأعطى الرسالة لوكيل المكتب الذى دخل وبلل بلسانه طابعا بقيمة خمسة سنتافو رسم البريد الجوى والرسم الاضافى للتعمير .. وظل برهة يفتش فى درجه .. وعندما أضيئت أنوار الشارع وضع القس تقودا معدنية على الحاجز وانصرف دون أن يسلم ..
ولبت وكيل البريد يفتش فى الدرج .. وبعد ان تعب من البحث بين أوراقه ، كتب العبارة الآتية بالمداد على زاوية المظروف : « لا توجد طوابع فئة خمسة سنتافو » .. ووقع بامضائه وبصم بخاتم المكتب ...

فى تلك الليلة عشر الاب انجيلو على فأر ميت طافيا فى حوض الماء المقدس .. وكانت ترينيداد تنصب المصائد فى مكان التعميد .. فأمسك بالفأر من ذيله وقال لها ملوحا :
- انك ستخلقين المشاكل .. الا تعرفين ان بعض المتدينين يضعون الماء المقدس فى الزجاجات ليشربه مرضاهم ؟..
فقلت ترينيداد :
- وماهى المشكلة هنا ؟..
فرد القس قائلا :
- عجيب ! .. ان المرضى فى هذه الحالة سوف يشربون ماء مقدسا مخلوطا بالزرنبيخ ! ..

فذكرته ترينيداد أنه لم يعطها بعد نقودا لشراء الزرنينخ ، وقالت :

— أنه جيس ...

وشرحت الطريقة ، فقالت انها وضعت الجبس فى أركان الكنيسة فكان الفأر يأكل شيئا منه ، وبعد برهة يشعر بعطش جنونى فيذهب للشرب من حوض الماء المقدس ، وعندئذ يتجمد الجبس فى معدته .. فقال القس :

— على أى حال كان الافضل أن تأتى وتأخذى النقود لشراء الزرنينخ ... أنا لا أريد قُرانا أخرى فى الماء المقدس ...

وفى المكتب وجد وفدا من « السيدات الكاثوليكيات » فى انتظاره برئاسة ريبكا آسيز .. وبعد أن أعطى ترينيداد النقود لشراء الزرنينخ أشار الى حرارة الغرفة وجلس الى مكتبه فى مواجهة السيدات الثلاث ، اللأى كن ينتظرن صامتات ...
قال لهن :

— أنا فى خدمتكن يا سيداتى الكريمات ...

تبادلن النظرات ... ولم تلبث ريبكا آسيز أن فتحت مِرْوَعة طبعت عليها رسوم وصور يابانية ، وقالت دون خفاء :

— هى مسألة « الملصقات الفاحشة » يا ابتاه ...

وبصوت متموج كأنما تحكى حكاية خيالية . راحت تصف ما يخامر البلدة من انزعاج وجزع ... وقالت أنه حتى ولو كانت وفاة باستور يمكن تفسيرها بأنها « مسألة شخصية بحتة » . فان العائلات المحترمة مضطرة الى اعتبار « الملصقات الفاحشة » مسألة تشهير بالقلق ...

وكانت كبرى السيدات الثلاث ، وهى « أدا ليزا مونتويا » ، أكثر إيضاحا ، إذ قالت وهى تتكلم على مظللتها :

— نحر معشر السيدات الكاثوليكيات قد قررنا أن نتدخل فى الأمر ...

جعل الاب انجيلو يتأمل بضع لحظات ... ولم تلبث ريبكا آسيز أن أخذت نفسا عميقا ، حتى لم يتمالك القس أن عجب كيف تستطيع هذه المرأة أن تستنشق مثل هذا الهواء الحار ... كانت رائحة كرهرة ، ذات بياض يبهز النظر وصحة فياضة دافقة ... ومالمث أنفس أن تكلم ، فقال وقد ركز نظره عند نقطة لا وجود لها :

— احساسى هو أننا لا يجب أن نغير أى التفات لصوت الفضيحة ..

يجب أن نضع أنفسنا فوق مثل هذه الأشياء وأن نمضى فى طريقنا متبعين القانون الالهى ، كما درجنا أن نفعل هذا حتى الآن .. وافقت « أداجزا مونتيا » على هذا رأى بحركة من رأسها .. لكن زميلتيها لم توافقا ، وبدا لهما أن « المصيبة يمكن أن تجلب نتائج وبيلة فى المدى الطويل » ... وفى هذه اللحظة « سعل » صوت الميكروفون من دار السينما ... ف ضرب الاب انجيلو على جبينه قائلا :

- معاذرة ...

وفى نفس الوقت بحث فى الدرج عن كشف الرقابة الدينى ، قائلا :

- ما الذى يعرضونه فى دار السينما ؟ ..

فأجابت ريكا آسيز :

- « فراصنة الفضاء » ... هو فيلم من افلام الحرب ..

راح الاب انجيلو يبحث عنه فى البيان الابجدى للافلام وهو يفهم أسماء العناوين مستعينا بسبائته فى البحث بين القائمة التفصيلية .. وفيما هو منهمك فى ذلك للاطلاع على الصفة الاخلاقية للفيلم ، اذ سمع صوت مدير السينما بدلا من التسجيل الموسيقى المنتظر ، معلنا إلغاء العرض السينمائى بسبب رداءة الطقس ... وأبدت احدى السيدات أن المدير اتخذ هذا القرار نظرا لان الجمهور طالس برد نقوده اذا توقف عرض الفيلم بسبب المطر قبل منتصف العرض .. فقال الاب انجيلو :

- شئ مؤسف ... فان الفيلم موافق عليه للجميع .. وأقفل الكتيب واستطرد قائلا :

- كما كنت أقول ، فان هذه البلدة واعية ... فمنذ تسعة عشر عاما ، عندما عينونى فى هذه الابرشية ، كانت هناك احدى عشرة حالة للتسرى « اتخاذ العشيقات من الاماء » بين العائلات الكبيرة .. واليوم لا توجد سوى حالة واحدة ، والامول أن تنتهى بعد فترة قصيرة ..

فأالت ريكا آسيز :

- ليس هذا ما يعنينا .. وانما هى مسألة خاصة بأولئك الناس المساكين ...

فاستطرد القس قائلا دون أن يلقى باله الى هذه المقاطعة :

- ليس ثمة سبب للقلق ... وعلى المرء أن يتذكر الى اى حد كبير تغيرت البلدة ... فى تلك الايام السالفة قدمت راقصة باليه روسية عرضا للرجال فقط فى دائرة محدودة ، وفى النهاية عرضت كل قطعة ملابس تسترها فى المزارد للمتفرجين !!
واختتم الاب انجيلو كلامه قائلا :

- اما الآن ، فقد دلت الشواهد على أن اهل هذه البلدة هم اكثر الناس وعيا بالجوانب الخلقية بين أبرشيات المنطقة ...
وعطف الاب انجيلو على ما يلاقيه من مصاعب فى كفاحه حيال الضعف والقصور الماثلين فى الطبع البشرى ، الى أن كفت المستمعات عن القاء السمع بسبب الحر ، حتى أن ريبيكا آسيز بسطت مروحتها مرة ثانية ، فمضى يقول أخيرا :

- وفى نفس الوقت فان كنيسةنا هنا هى افقر الكنائس فى المنطقة كلها ... فان الاجراس قد تشققت ، وامتلا صحن الكنيسة بالفئران لان حياتى كلها قد كرس لبث المبادئ الاخلاقية والعادات الحميدة ...

وفك ازرار باقته ، ونهض قائلا :

- ان اى شاب يمكنه أداء هذا العمل من نواحيه المادية .. ولكن المرء بحاجة الى داب السنين الطوال والى خبرة الكبار لكى يعيد بناء السلوكيات والاخلاق ...

فلم تلبث ريبيكا آسيز أن رفعت يدها الشفافة اللألاء ذات خاتم الزواج الذى يعلوه خاتم آخر زمردى ، وقالت :

- ومن أجل هذه الاعتبارات ذاتها ، بدا لنا أنه مع وجود هذه « الملصقات الفاحشة » ، فان كل جهودك قد تكون مهددة بالضياع ..
وهنا انتهزت المرأة الثالثة التى ظلت صابرة طيلة الحوار الفرسية للتدخل قائلة :

- فضلا عن هذا ، رأينا أن البلدة وهى تتماثل الآن للشفاء من اسقامها ، فقد تؤدي مصيبة « القصصات الفاحشية » الى اثاره مناعب جديدة ..

فأخرج الاب انجيلو مروحة من درجة وأخذ يروح بها متئدا ، ورد قائلا :

- ان مسألة معينة ليس لها علاقة بمسألة أخرى ... اننا اجتزنا

فترة سياسية صعبة ، ولكن الخلفيات الاسرية ظلت سليمة لم يمسهما
السوء ...

وبعض قائم امام السيدات الثلاث ، وقال :
- فى خلال سنوات معدودة سوف اذهب الى رئاسة هذه الابرشية
واقول : اننى اقدم اليكم هذه السدة النموذجية ... وكل ما اتم
بحاجة اليه الآن هو ابغاد شاب نشط لكى يجعل منها احسن كنيسة
فى المنطقة ...

وانحنى بتؤدة وأضاف :
- وعندئذ سأذهب لكى اسوت بسلام فى مدافن اسلافى ...
احتجت السيدات ، وعذرت « ادالجزا مونوتويا » عن افكارهن
قائلة :

- هذه البلدة مثل بلدتك ايها الاب ... ونحن نريد منك ان تبقى
هنا الى آخر لحظة ..
وفالت ربىكا آسىز .

- ان كانت المسألة مسألة بناء كنيسة جديدة ، فيمكننا ان نبدأ
الحملة من باكر ..
فرد الاب انجيلو قائلا :

- كل شئ فى وقته ...
ثم بلهجة اخرى اضاف قائلا :
- اما فى الوقت الحالى ، فاننى لا اريد ان اشيخ على رأس ابنة
ابرشية ... لست اريد ان يحدث لى ماحدث للرجل الوديع انطونيو
سانتسيمو ، الذى ابلغ الاسقف ان مطرا من الطيور الميتة كان يسقط
فى أبرشيته ... لقد وحده المحققون الموفدون من قبل الاسقف فى
الميدان الرئيسى يلعب مع الاطفال لعبة « عسكر وحرامية » ..
بدت الدهشة والحيرة على وجوه السيدات ، وقلن :

- ومن كان ؟ ..
فأجاب الاب انجيلو :
- كان الداعى الذى خلفنى فى بلدة ماكدوندو ... فقد بلغ المائة
من العمر ! ..

الفصل الثالث

ان الشتاء الذى دلت الشواهد والتنبؤات منذ أواخر أيام سبتمبر على أنه سيكون شديد الوطأة ، بلغ ذروة قسوته فى نهاية هذا الاسبوع ... ولقد أمضى العمدة يوم الاحد وهو يمضغ الأقراص المسكنة مستلقيا فى أرجوحته ، فى حين فاض النهر على صفته ودمر المناطق الواطئة فى البلدة ...

وفى خلال الفترة الاولى لانقطاع المطر ، فى فجر يوم الاثنين ، كانت البلدة بحاجة الى ساعات عديدة لكى تسترد أنفاسها وتمائل للشفاء مما نزل بها ..

وفى هذا اليوم فتح البار ودكان الحلاق بابيهما مبكرين ، لكن معظم البيوت ظلت موصدة حتى الساعة الحادية عشرة .. وكان مستر كارميكل هو أول من سنحت له الفرصة لكى يرتعد لمشهد الرجال وهم يحملون بيوتهم الى بقاع أكثر ارتفاعا ... ولقد راحت الجموع المهرولة المتزاحمة تتسابق مما استخلصته من جدران بيوتها الهشة المضفورة من الأغصان وسقوف النخيل لأقامتها فى الأماكن الآمنة من الفيضان ...

وكان مستر كارميكل محتفيا بأفريز سقف دكان الحلاق فاتحاً مظلته يتأمل هذا الموكب العانى عندما أخرجه الحلاق من تأملاته قائلاً :

— كان عليهم أن ينتظروا حتى يتكشف الطقس ..

فقال كارميكل وهو يضم مظلته :

— لن يتكشف قبل يومين ..

كان الرجال الذين يحملون بيوتهم وهم غارقون فى الوصول حتى سيقانهم يملأون تباعاً وهم يصطدمون بحائط دكان الحلاق وقد تعرض متاعهم للدمار ، حتى لقد شعر كارميكل بوطأة الكارثة ..

وبدا كأن الوقت يناهز السادسة صباحاً ، ولكن معدته دلته على أنهم يشارفون الثانية عشرة .. ودعاه أحد التجار الشرقيين الى الجلوس فى دكانه حتى ينتهى المطر ، فكرر كارميكل مقالته آنفاً من أن الجو لن يتكشف قبل ثمان وأربعين ساعة .. وقد تردد فترة قبل

الوثوب الى المعبر الخشبي للبيت المجاور ... وقذف نفر من الاولاد كانوا يلعبون لعبة الحرب نرة من الطين لطخت الحائط على بعد اقدام قليلة من بنطلونه المكوى حديثا .. وخرج تاجر آخر من دكانه ويده مكنسة يهدد الاولاد وينوعدهم ... فأخذ الاولاد يتواثبون فى مرح وهم يتغامزون على التاجر .

ولما رأى مستر كارميكل أن ملابسه لم يمسها سوء مالبث أن دخل دكان الحلاق واتجه الى الكرسي مباشرة .. فقال الحلاق :

— كنت أقول دائما أنك رجل حكيم ...

وعمد الى فوطة فربطها حول عنق كارميكل ، واستهل عملياته بتقليم الشعر المجمع على قفاه ... ولما شعر كارميكل بالضجر نظر حوله باحثا عن شيء يقرأه ، قائلا :

— ألا توجد عندك جرائد ؟ ..

فرد الصالح قائلا دون أن يتوقف عن عمله .

— ان الجرائد الرجيدة التى تركوها فى البلاد هى الجرائد الرسمية ، ولن تدخل دكانى طالما بقيت على قيد الحياة ...

فقنع مستر كارميكل بالنظر الى حذائه ، الى أن سأل الحلاق عن احوال الامرلة مونتييل .. كان كارميكل قادما من عندها ... فهو يعمل مديرا لاعمالها منذ وفاة زوجها دون جوزيه شيب مونتييل ، وكان مشرفا على حساباته سنوات طويلة ...

وقد اجاب كارميكل قائلا :

— انها فى مقرها ...

فقال الحلاق وكأنه يكلم نفسه :

— يظل الانسان يكد ويكدح حتى يموت ... وهامى ذى وحيدة ، مع مساحة من الارض لا يمكنك أن تقطعها على ظهر حصان فى خمسة ايام .. لابد أن ملكيتها تشمل عترة بلدان تقريبا .. فقال كارميكل :

— ثلاثة ... ثم اضاف بلهجة التأكيد :

— انها اكمل امرأة فى الدنيا كلها ...

انتحى الحلاق حائنا لتنظيف المشط ... ولح مستر كارميكل وجهه العنرى منعكسا فى المرأة ، ففهم مرة اخرى لماذا لم يكن يحترمه ... ثم تكلم الحلاق ، ناظرا الى الصورة :

— عملية رابحة ... يصل الحزب الى السلطة ، ويهدد البوليس

خصوم صاحبنا السياسيين بالموت ، فيشتري هو ارضهم ومواشيهم
بالثمن الذى يحدده ...

خفف مستر كارميكل رأسه ... فعاد الحلاق الى قص شعره
مرة أخرى ، وأضاف قائلا :

- وعندما تنتهى الانتخابات يملك صاحبنا ثلاث بلدان ، ولا يجد
من ينافسه ، وتكون له اليد العليا حتى بتغيير الحكومة ... وكل
ما يمكن أن أقوله فى هذا هو أنها أبداع عملية فى الوجود ، بل انها
اربح حتى من التزيف ...
فقال مستر كارميكل :

- ان جوزيه مونتيل كان غنيا قبل الاضطرابات السياسية بزمان
طويل ...
فقال الحلاق :

- ... عندما كان يجلس بسرويله عند باب صومعة ارز ! ..
وهناك قصة تقول انه ليس أول زوج حذاء فى سن التاسعة ..
فاعترف مستر كارميكل بهذا قائلا :
- وحتى لو كلن هذا ، فان الارملة لم يكن لها ضلع فى أعمال
مونتيل ...
فقال الحلاق :

- لكنها كانت الدمية التى اتخذها واجهة له ..
لم يلبث مستر كارميكل أن رفع رأسه .. ثم خفف رباط القوطة
حول رقبتة لتسهيل الدورة الدموية ، وأعرب عن احتجاجة
قائلا :

- هذا هو السبب فى اننى كنت افضل دائما ان تتولى زوجتى
قص شعرى ... انها لا تأخذ منى أجر الحلاقه ، وفوق هذا فهى
لا تتكلم فى السياسة ...
فدفع الحلاق رأسه الى الامام واستمر يعمل فى صمت .. وحيانا
كان يضرب بمقصه فى الهواء الشمس من فرط تمكنه من الفن ...
وسمع مستر كارميكل صياحا من الشارع ... فنظر فى المرآه ورأى
أطفالا ونساء يمرن تباعا أمام باب الدكان حاملين الاثاث والادوات
المنزلية من بيوتهم التى كانوا ينقلون مواقعها ... فقال فى أسى :
- المصائب تأكلنا ، وأنتم ايها الناس مازلتُم بأحقادكم السياسية

... ان الظلم قد انتهى منذ عام ، ومازلتم تتكلمون عـن نفس الموضوع ! ...

فرد الحلاق قائلا :

— ان حالة الاهمال التى نعيش فيها هى ظلم أيضا ..
فقال مستر كارميكل :

— لكنهم لا يعذبوننا ..

— ان الاهمال هو نوع آخر من التعذيب ..

فاعتاج مستر كارميكل قائلا :

— هذا كلام جرائد ...

ظل الحلاق صامتا ... وارغى بعض الصابون فى الاناء وغمس الفرشاة وأجراها على قفاه ، وقال معتذرا :

— الحكاية هى أن الانسان يجب أن يتبسط فى الكلام .. اننا لا نحظى كل يوم برجل محايد ...

فقال مستر كارميكل :

— لا يستطيع أى انسان الا أن يكون محايدا وعنده احد عشر طفلا يطعمهم ...

فقال الحلاق :

— موافقون ...

وأجرى الموسيقى بحفيف على راحة يده .. وأخذ يحلق العنق صامتا ، مزىلا رغوة الصابون على أصابعه ، ومنظفا أصابعه فى بنطلونه ... وفى النهاية ذلك القفا بقطعة من الشب ، ثم فرغ صامتا ...

وبينما كان مستر كارميكل يزرر ياقته لمح الرقعة المسمرة على الحائط الخلفى تحمل هذه العبارة : « ممنوع الكلام فى السياسة »

... فنفض الشعريرات عن كتفيه ، وعلق مظلمته فى ذراعه ، وقال مشيرا الى الرقعة :

— لماذا لا ترفعها ؟ ..

فقال الحلاق :

— انها لا تشملك ... فقد اتفقنا على أنك رجل محايد ..

لم يتردد مستر كارميكل هذه المرة فى الوثوب مبتعدا عن دكان الحلاق ، الذى ظل يراقبه الى أن استدار حول الناحية ، وبعدها

انشغل بمراقبة النهر الصاخب المنذر بالخطر ... لقد توقف المطر ، بيد ان سحابة كثيفة بدت مغلقة فوق البلدة لا تريم ولا تنزحزج ..

وقبل الساعة الواحدة تقليل جاء التاجر الشرقى يندب شعره الذي يتساقط من جمجمته ومع ذلك فهو ينمو على قفاه بكثرة وبسرعة عجيبة ...

وكان من عادة التاجر ان يأتى لقص شعره يوم الاثنين .. وكان يسلم رأسه للحلاق مستكبنا ويأخذ في الفطيط بينما يسترسل الحلاق في الكلام الى نفسه بصوت مرتفع .. أما يوم الاثنين هذا ، فقد استيقظ منتفضا لدى السؤال الاول :

— هل تعرف من كان هنا الآن ؟ ..

فأجاب التاجر :

— كارميكل ...

فقال الحلاق وهو يضغط على الكلمات :

— كارميكل العفن الوغد ... اننى اكره هذا الصنف من الرجال .

فقال التاجر :

— ان كارميكل ليس من الرجال .. انه لم يشتر لنفسه حذاء في بحر ثلاث سنوات ... لكنه في مجال السياسة يفعل كل ما هو مطلوب منه .. فهو بشرف على الحسابات والدفاتر بعيون مغمضة ...

واسند لحيته الطويلة على صدره لكي يفظ من جديد ، لسكن الحلاق انتصب أمامه مشبك الذراعين ، قائلاً :

— قل لى شيئاً واحداً يا أخ ... بصرف النظر عن كل الاقوال والافعال : مع أى جانب أنت ؟ ..

فأجاب التاجر دون أى قلق :

— مع نفسى ...

فقال الحلاق :

— أنت غلطان ... كان يجب على الاقل ان تتذكر دائماً انهم كسروا اربعة أضلاع فى صدر ابن زميلك التاجر الياس ، بناء على أوامر من دون جوزيه مونتييل

فقال التاجر الشرقى :

— ان الياس حزن لأن ابنه اندمج فى السياسة .. اما الآن فان الابن ينعم بالحياة فى البرازيل ، فى حين أن جوزيه مونتييل فى عداد الاموات ...

قبل أن يفادر العمدة غرفته التي كانت مبعثرة نتيجة لليالي الطويلة التي قضاها يعاني من ضرره ، حلق الجانب الايمن لوجهه ، تاركا الجانب الآخر بشعر ذقن طوله اسبوع .. وما لبث ان ارتدى كسوة رسمية نظيفة وحذاءه العالي اللامع وخرج لتناول الطعام في الفندق منتهزا فرصة توقف المطر ...

لم يكن هناك أحد في قاعة الطعام ... فشق العمدة طريقه خلال الموائد الرباعية الصغيرة واحتل ركنًا منعزلا في آخر القاعة .. ونادى :

— ماسكس !..

ردت عليه فتاة صبية تلبس ثوبا ضيقا قصيرا ولها نهذان بارزان كحجرين ... فأمر العمدة بالفداء دون أن ينظر اليها ...

وقبل أن تعود الصبية الى المطبخ أدارت الراديو القائم فوق رف في آخر القاعة .. فسمعت نشرة أخبار كانت تذاع ، متضمنة مقتطعات من خطاب القاه رئيس الجمهورية في الليلة الماضية، وأعقبها بيان بالسلع الحديدة التي تقرر منع استيرادها ... وتزايدت شدة الحراسة بينما كان صوت المذيع يملأ المكان ... وعندما عسات الصبية بالحساء كان العمدة يحاول تخفيف الحر بالترويح « بكابه » العسكري .. فقالت الصبية :

— ان الراديو يجعلنى أعرق أيضا ...

واخذ العمدة يتناول حساءه ... وكان يرى دائما أن هذا الفندق المنعزل الذي يؤمه بعض البائعين المتجولين بين السلاسل على فترات ، هو مكان يختلف عن بقية البلدة ... والواقع أن تاريخه سابق للبلدة ذاتها .. فقد اعتاد التجار الوافدون من داخلية البلاد لشراء محصول الارز تمضية ليلهم في الشرفة الخشبية العتيقة وهم يلعبون الورق منتظرين طراوة الفجر حتى يتسنى لهم النوم ... وفي الحرب الاهلية الاخيرة جاء الكولونيل « أوريليانو يويندا » ذاته الى الفندق وهو في طريقه الى بلدة ماكويديو لوضع شروط الاستسلام ، ونام في هذه الشرفة ذاتها ليلته في وقت لم تكن توجد فيها أية بلدان في مدى فرائس عديده حواليه .. وكان مبنى الفندق الحالي هو نفسه حينذاك ، بذات حوائطه الخشبية ، وسقفه الزنك ، وقاعة طعامه ، وحواجزه من الكرتون — فيما عدا الكهرباء والمرافق الصحية ... وقد روى أحد قدامى البائعين المتجولين أنه عند مستهل القرن

كانت هناك مجموعة من الاقنعة معلقة فى قاعة الطعام تحت تصرف
النزلاء ، وأن الضيوف المقنعين كانوا يقضون الحاجة فى الحوش على
مرأى من بعضهم البعض ...

هذا ، ولم يتمالك العمدة ان فك ازرار ياقته لكى يتم شرب الحساء
... وبعد نشرة الاخبار اذيعت اعلانات تجارية غنائية .. واعقبها
اغنية عاطفية عن رجل متيم بالحب ، قرر ان يطوف حول العالم فى
أثر معشوقته ...

وركرز العمدة اهتمامه فى القاعة أثناء انتظاره لبقية الوجبة .. ولم
يلبث ان لمح طفلين حاملين بعض الكراسى يمران أمام الفندق .. وجاءت
بعدهما امرأتان ورجل ، وثلاثهم يحملون أوانى وبرميل استحمام
وبقية الامتعة ...

وعندئذ قام العمدة الى الباب وصاح فيهم :
- من أين سرقتم هذه الامتعة ؟ ..

توقفت المراتان ... وتولى الرجل البيان ، فقال انهم ينقلون
دارهم الى الارض المرتفعة .. فسأله العمدة أين مقرهم الجديد ،
فأشار الرجل بقمعته الى ناحية الجنوب قائلاً :

- هناك ، فى أرض أجراها لنا دون سانس بثلاثين بيزو ..
جعل العمدة يقلب نظره فى الامتعة المتهاكة ، امتعة أناس فقراء ..
واخلد الى التأمل برهة ، وأخيراً قال :

- اذهبوا بكل هذا الى الارض الخالية عند المدافن ..
ظهر الارتباك على الرجل ، فقال العمدة :

- هذه أرض الحكومة ، ولن تكلفكم شيئاً ..
ثم التفت الى المراتين واطاف قائلاً :

- ... ان الحكومة تهمة لكم ... ثم قولوا لدون سانس اننى
ألفه رسالة من عندى ، وهى الا يكون من قطاع الطرق النهابين ..

وانهى غداءه دون ان يذوق أى طعام ... وبعد ذلك أشعل
سيجارة ، ثم أشعل سيجارة ثانية من عقب السيجارة الاولى ،
واستسلم للتفكير فترة طويلة مسنداً مرفقيه الى المائدة بينما كان
الراديو يرن صداه بالاغنيات العاطفية ...

وسأله الصصة وهى ترفع الصحاف :

- فيم تفكر ؟ ..

فأجاب دون أن يطرف بعينه :

- فى هؤلاء الفقراء المساكين ...
ووضع « الكاب » على رأسه واجتاز القاعة .. ثم استدار عند
الباب قائلا :

- لابد أن نجعل من هذه البلدة المنكودة بلدة طيبة ..
ونشب قتال دموى بين بعض الكلاب قطع عليه الطريق وهو
ينعطف لدى الناحية ... ووقع نظره على تشابك من الظهور
والأرجل فى دوامة عاتية من العواء الشرس أسفر عن أنياب مكشرة
وكلب يجر أطرافه وذيله بين ساقيه .. فحاد العمدة عن الطريق
واتجه الى ثكنات البوليس مباشرة ..

وسمع امرأة تصرخ فى غرفة الحجز ، بينما كان الحارس نائما
قبلولته منبطحا على وجهه فى السرير العسكرى ... فرفس العمدة
قائم السرير حتى استيقظ الحارس وثبا .. فسأله العمدة :
- من هى ؟ ..

- المرأة التى تعلق « الملصقات الفاحشة » ...
انفجر العمدة بوابل من السباب واللعنات على مرعوسيه ، طالبا
أن يعرفه من الذى جاء بالمرأة الى هنا وأوامر من وضعوها تحت
الحجز ... فأفا من الحنود فى الشرح والسبان ، فقال لهم :
- متي وضعتنهما فى الحجز ؟ ...

ولما قالوا أنهم حجزوها منذ ليلة السبت صاح فيهم :
- حسن ... لتخرج المرأة ، وليدخل مكانها واحد منكم ! ..
ان هذه المرأة كانت نائمة فى الحجز ، ولما استيقظت البلدة كانت
الملصقات فى كل مكان ! ..

رما أن فتح الباب الحديدى حتى خرجت امرأة متقدمة فى السن
بارزة العظام ضمت شعرها الأشعث بمشط وصاحت فى وجه العمدة
وهى تخرج من الرنزاة :
- ستأذهب الى جهنم ! ..

وفكت المرأة شعرها الذى بدا غزيرا ونزلت فى السلالم مضغضة
وهى تصرخ :
- ناعواهر ! .. ناعواهر ! ..

فانحنى العمدة فوق حاجز السلالم وصرخ بأعلى صوته وكأنه يريد
الا تسمعه المرأة وحدها ولا رجاله فقط بل أهل البلدة أجمعين :
- وعليك ألا تنفصى عيشتى تلك الملصقات اللعينة ! ..

على الرغم من استمرار الرذاذ بلا انقطاع ، فقد خرج الاب انجيلو للقيام بجوانته اليومية بعد الظهر ... كان الوقت لا يزال مبكرا عن موعد لقائه مع العمدة ، وهكذا يمم شطر القسم الذي غمره الفيضان في البلدة ... فكان كل ما وجدده جثة قطة طافية بين نقايا الزهور ...

وفي طريق عودته بدأ الطقس يجف ويصحو .. وكان ثمة صندل مشحون بأوراق المقطون بشق النهر المتكاثف الهامد ... وكانت روجة القاضي اركاديو جالسة بجانب باب بيتها مشبكة ذراعيها فوق بطنها المتضخم مركزة نظراتها على الصندل .. وعلى مبعدة ثلاثة بيوت بدأت الحوانيت تخرج معروضاتها والتجار الشرقيون يجلسون عند أبوابها ... وفي انصرام النهار بدت السحب الكثيفة وردية اللون والجو يخالطه صخب الببغاوات والقروود على صفة النهر المواجهة ...

وبدأت البيوت تفتح أبوابها ... وفيما تحت أشجار اللوز الكابية في الميدان ، وحول عربات اليد التي تقدم المشروبات ، وفوق دكك الجرائيت المتقدمة فيما بين أحواض الزهور - كان الرجال يتجمعون لأجزاء الوقت بالحديث والثرثرة ...

ولم يبصر الاب انجيلو الدكتور جيرالدو ، ولكنه تصوره بعين الخيال يتسم من خلف ستار النافذة ... ثم سمع صوته يقول له : -

- ادخل الى غرفة الانتظار ...

دفع الاب انجيلو الباب .. فوقع نظره على طفل ممدد فوق مرتبة وليس في هيكله سوى عظام تكسوها بشرة مصفرة ... وكان في الانتظار رجلان وامرأة جالسين قرب الحائط الكرتوني ... فسأل :

- من يكون هذا ..

فردت المرأة قائلة :

- ولدى ... منذ سنتين وهو ينزف الدم ...

وحول الطفل المريض عينيه الى ناحية الباب دون أن يحرك رأسه ، حتى لقد شعر القس بأشد الرثاء لحالته ... وسأل المرأة :

- وماذا فعلتم له ؟ ...

فأجابت المرأة :

– كنا نعطيه موزا اخضر منذ فترة طويلة ... لكنه بدأ يرفضه ،
مع انه لم يذ وقابض ...

فعال القس :

– لابد ان تجيئوا به للاعتراف ...

لكنه قالها بغير يقين ...

وأغلق الباب بعناية وحك ستار النافذة بأصبعه وهو يدنى وجهه
منه اكى يرى الطبيب فى الداخل ...

كان الدكتور جيرالدو يسحق شيئا فى هاون ... فسأله القس :
– ماذا به ؟...

فرد الطبيب قائلا :

– اننى لم افحصه بعد ...

ثم عفب ساهما :

– هناك أشياء تحدث للناس بإرادة الله يا أبى ...

فقال الاب انجيلو :

– لا احد بين الموتى الذين رأيتهم فى حياتى بدا أشد موتا من
هذا الطفل التمس ...

واستأذن منصرفا ... ولم تكن ثمرة مراكب على رصيف الميناء
النهرى ... وبدأ الظلام يرخى سدوله .. وشعر الاب انجيلو ان
حالته الفكرية تغيرت بمشهد الطفل العليل .. ولما أدرك أنه تأخر عن
موعدده مع العمدة أسرع فى سيره متجها الى ثكنات البوليس ..
كان العمدة متهاككا فى المقعد المنطوى ورأسه بين يديه ، فقال له
القس بتؤدة :

– مساء الخير ...

رفع العمدة رأسه ، وارتعد القس لما رأى من حمرة اليأس فى
عينيه ... وبدأ أحد خديه حديث الحلاقة ، أما الثانى فكان فى شبه
مستنقع من أثر المرهم الرمادى الذى غطاه ... وقد هتف متوجعا
بشبرات متبلدة :

– يا أبى ... اننى سأطلق النار على نفسى ! ..

شعر الاب انجيلو بلون من الجزع ، وقال :

– انك تبدو مثل سكران بسبب كثرة الاسبيرين الذى تأخذه ..
فتقلب العمدة الى ناجية الحائط ممسكا رأسه بين يديه وأخذ

يدفه في الالواح ، حتى قدر القس في نفسه أنه لم يشهد قط مثل هذا الالم ... فلم يجد في حيرته الا أن يقول :

- خذ قرصين مسكينين ... ان قرصين زيادة لن يقتلاك ..

واخذ يبحث عن اقراص المسكن في فراغ الفرفة العارية ، ولم يكن بها سوى بضعة مقاعد جلدية صغيرة بلا ظهر ، ودولاب زجاجي محشو بأوراق متربة ، وصورة مطبوعة بالحجر لرئيس الجمهورية معلقة بمسمار ... وكان الاثر الوحيد لوجود الاقراص المسكنة هو اغلفتها الفارغة المنثورة على الارض .. فقال القس بيأس :

- أين هي ؟...

فرد العمدة قائلا :

- لم يعد لها أي تأثير على ...

فاقترب القس منه وكرر سؤاله :

- قل لي أين هي ؟...

فرجف العمدة رجفة شديدة ادنت وجهه المحتقن البشع من وجه القس ، وسرخ :

- لعنة الله ! .. قلت لك انها لا تفيدني بشيء !...

ورفع أحد الكراسي الصغيرة فوق رأسه وطوح به بقوة اليأس الذي تملكه الى الدولاب الزجاجي ... ولم يفهم الاب انجيلو ماحدث الا بعد مطر الزجاج المتهاوى ، وعندها بدا العمدة ينهض مثل طيف يبرز من ثنانيا سحابة من الفبار ... وأعقب هذا سكون مطبق ...

ثم غمغم القس :

- يا حاضرة الملازم ...

لاح عند الباب جنود البوليس شاهرين بنادقهم .. فنظر اليهم العمدة دون أن يبصرهم وهو يتنفس مثل قطة فنكسوا بنادقهم ولكنهم ظلوا بلا حراك قرب الباب .. وعندئذ أمسك الاب انجيلو بذراع العمدة الى الكرسي المنطوي وهو يقول له باصرار :

- أين الاقراص المسكنة ؟...

فاغمض العمدة عينيه ودلوح رأسه الى الخلف قائلا :

- لن آخذ شيئا بعد الآن من هذه الاقراص ... ان اذني تطنان وعظام جمجمتي توشك على الشلل ...

وفي فترة سكون الالم الوجيزة ادار رأسه نحو القس قائلا :

- هل كلمت طبيب الإسنان ؟ ..

فرد القس بنعم فى صمت ... ومن واقع ملامح القس التى أعقبت
عدا الرد عرف العمدة نتائج المقابلة ... وقد قال له القس :
- ماذا لا نكلم الدكتور جبرالدو ؟ .. هناك أطباء باطنيون يخلعون
الاسنان ...

تواشى العمدة فى الرد ، وقال أخيراً :
- فى الغالب سيقول أنه ليس لديه عدة خلع ...
وأضاف قائلاً :
- هى مؤامرة ! ..

وانتهز فرصة سكون الألم الوقتى للراحة من وطأة عذابه ..
وعندما فتح عينيه كانت الغرفة شبه معتمة ... فقال دون أن يبصر
الاب انجيلو ...

- أنك جئت من أجل سيزار مونتيرو ...
ولما لم يتلق ردًا مضى يقول :

- مع هذا الألم لم أتمكن من عمل أى شىء ...
ونفض قائماً لإضاءة النور ، فاندفعت أول موجة من البعوض
الى الداخل من خلال الشرفة ، حتى لقد دهش الاب انجيلو من تأخر
الوقت على هذه الصورة ، وقال :

- الوقت يمر سريعاً ...
فقال العمدة :

- لابد من ارساله يوم الاربعاء على أى حال ... غدا اتخذ
ترتيبائك وتلق اعترافه بعد الظهر ...

- فى أى ساعة ؟ ..
- الرابعة ...

- حتى لو أمطرت ؟ ..

وفى نظرة واحدة أطلق العمدة كل الضيق المكتوم طوال اسبوعين من
المعاناة والعذاب قائلاً : حتى لو كانت نهاية الدنيا يا أبى ..

غدا الألم فى منعة من التأثير بالمسكنات .. وعلق العمدة إرجوحه
فى الشرفة محاولاً النوم فى طراوة المساء المبكر ... لكن قبل أن
تحل الساعة الثامنة استسلم لليأس من جديد ونزل الى الميدان
الذى كان فى حالة خدر بسبب تفاقم الجو ...

وبعد طواف فى المنطقة دون أن يجد الإلهام الذى كان ينشده
للارتفاع فوق الألم ، اتجه أخيراً الى دار السينما ...
لكنها كانت غاطة ... فان أزيز الطائرات الحربية فى القيسم
ضاعف من حدة الألم .. فترك دار السينما قبل الاستراحة وقصد
الى الصيدلية فى اللحظة التى كان فيها دون لالو موسكوت يستعد
لاغلاق الصيدلية ...
وقال له :

- أعطنى أقوى شىء عندك لوجع الأسنان ...
فحص الصيدلى الخد بنظرة متبلدة ... ومالبث أن ذهب الى
المكان الخلفى للصيدلية ماراً بصف من الدواليب الزجاجية الأبواب
كانت مليئة عن آخرها بقنان خزفية كتب على كل منها اسم المادة
بحروف زرقاء ... وعندما وقف العمدة ينظر الى الصيدلى من
خلف أدرك أن هذا الرجل المورد الوجه والعنق أغلب الظن يعيتى
حياة سعيدة ... انه كان يعرفه ... فهو يقيم فى غرفتين خلف
انصيدلية ، وله زوجة بدينة مفرطة البدانة ، وأصيبت بالشلل منذ
سنوات طويلة ...

عاد دون لالو موسكوت ومعه قنينة لا تحمل بطاقة ، وعندما فتحها
انبعث منها بخار أعشاب زكية ، فقال له العمدة :
- ما هذا ؟

دس الصيدلى أصابعه فى القنينة بين البذور المجففة ، وأجاب
قائلاً :

- بذور النعناع والجرجير ... أمضغتها جيداً وأبلع العصير
بطيء ... ليس أفضل من هذا دواء للروماتيزم ...
وألقى بضع حبات فى كفه وقال وهو ينظر الى العمدة من فوق
نظراته :

- افتح فمك ...

تراجع العمدة ... وأدار القنينة للتأكد من عدم كتابة شىء عليها،
ثم عاد بنظرة الى الصيدلى قائلاً :

- أعطنى شيئاً مستورداً من الخارج ...

فقال دون لالو موسكوت :

- هذا أفضل من أى شىء مستورد من الخارج ... انه مضمون
بثلاثة آلاف سنة من الحكمة الشعبية ...

وبدا يلفف البذور في قطعة من ورق الجرائد . . ولم يكن في هذا يبدو كرب أسرة . . . كان يبدو وكأنه عم عطوف ، يغاف البذور بعنو انسان يصنع طيوراً من الورق للأطفال . . . وعندما رفع رأسه بدا يتسّم ، وقال :

— لماذا لا تلعب اضريس ؟ . .

لم يرد العمدة . . . ودفع الثمن نفدا وغادر الصيدلية دون استظار بقيته . . .

وتنصف الليل ولم يزل يتلوى في أرجوحته دون أن يجسر على مضغ البذور . . . وعندما كانت الساعة الحادية عشرة وقد بلغت الحرارة ذروتها ، تفجر السحاب ، ولكنه أسفر عن رذاذ خفيف . . ولما أنهكتة الحمى وأخذ يرتعد والعرق البارد اللازج يغمره ، لم يتمالك وهو منبطح على وجهه في الأرجوحة أن فتح فمه وبدأ يصلى في نفسه . . . كان يصلى بعمق وقد تصلبت عضلاته من تقلص الألم ، لكنه كان مدركاً أنه كلما جاهد للتقرب إلى خالقه ، كانت قوة الألم من الشدة بحيث تدفعه إلى الناحية العكسية . . وفي النهاية لبس حذاءه العالى ومعطفه الواقى من المطر فوق البيجاما ، وانجه إلى ثكنات البوليس . . .

وهناك انفجر بالصياح . . . وسرعان ماتوا ثب جنود البوليس وهم بين الكابوس واليقظة وراحوا يتحنطون في الشمس باحثين عن أسلحتهم . . . وعندما اضيئت الانوار كانوا نصف لابسين ، منظرين الاوامر . . .

صاح العمدة :

— جونزاليز : .. زوفيرا ! .. به التا ! ..

انفصل المسمون الثلاثة عن زملائهم واحاطوا بالعمدة . . . ولم يكن ثمة سبب ظاهر يبرر هذا الاختيار : فقد كانوا ثلاثة أفراد عادييين من الولدين . . . وكان أحدهم ، وهو طفولى الملامح ، حليق الرأس ، برندى « فائلة » داخلية . . . وكان زميله يرتديان نفس « الفائلة » ، تحت كسوة عسكرية غير مزررة . . .

ومهما يكن فانهم لم يتلقوا اوامر محددة . . . وانما وثبوا في السلالم خلف العمدة كل أربع درجات معا ، وغادروا الثكنات في صف غير منتظم . . . واجتازوا الشارع دون أن يعبأوا بالمطر ، ثم توقفوا أمام مكتب طبيب الاسنان . . . وفي هجوم خاطف حطموا الباب بكعوب البنادق . واقتحموا البيت في اللحظة التي اضئ فيها نور البردهة . . . وظهر

رجل ضئيل أصلع نافر العروق وقف عند الباب الخلفى لإبسا «التسورت» محاولا ارتداء «روب» الحمام... ولأول وهلة طسل متسلولا في مكانه رافعا أحد ذراعيه فاغر الفم، كصورة فوتوغرافية تبدو في الوميض الخاطف... ولم يلبث أن وثب الى الخلف مصطدما بزوجته التي كانت قادمة من غرفة النوم بجلباب نومها...

صاح العمدة:

- لا تتحرك...

رفعت المراء يديها الى فمها قائلة: آه!.. ثم انسحبت سائدة الى غرفة النوم... أما طبيب الاسنان فقد اتجه الى الردهة وهو يلف المتبل حول الرب، وعندئذ فقط ميز رجال البوليس الثلاثة الذين وقفوا مصويين بنادقهم اليه، بينما وقف العمدة هادئا والماء يقطر من كل أطرافه وقد دس يديه في جيوب معطفه..

قال العمدة:

- اذا خرجت السيدة من الغرفة فعندهم أوامر بإطلاق النار عليها!...

أمسك طبيب الاسنان بأكرة الباب قائلا لزوجته:

- سمعت يابنت؟...

وأغلق باب غرفة النوم بإحكام... ثم سار الى غرفة الاسنان تتابعه فوهات البنادق الكالحة... وقد سبقه جنديان الى هذه الغرفة، فضاء أحدهما النور... واتجه الثاني الى منضدة العمل وأخرج مسدسا من الدرج...

فقال العمدة:

- لا بد هناك مسدس آخر..

كان دخول العمدة اخرهم، خلف الطبيب... وتولى الجنديان اجراء تفتيش سريع ومدقق، بينما وقف الثالث لحراسة الباب..

وفي عملية التفتيش القوا على المنضدة صندوق الادوات وبعثروا قوالب الحشو واطقم الاسنان التي لم تتم والاسنان الفردية والانطية المذهبة على الارض... كما أفرغوا القناني الخزفية التي كانت في الدراب، وبضربات سريعة من السونيكيات أخرجوا احشاء الوسادة المفطاة بقماش المشمع على مقعد الطبيب، وكذلك احشاء الوسادة الزنبركية فوق الكرسي الدائري...

قال العمدة عن المسدس محددًا نوعه :

— طويل الفوهة عيار ٣٨ .

وتفرس فى وجه الطبيب وهو يقول :

— كان الافضل لو قلت لنا من الاول أين المسدس ... اننا لم نأت مستعدين لهدم البيت على من فيه ...

لم تفصح نظرات طبيب الاسنان من خلف نظارته المذهبة الاطار المنبعثة من عينيْن ضيقتين متبلدتين عن شيء .. وانما قال بلهجة متراخية :

— من ناحيتى ، أنا غير مستعجل .. يمكنكم اذا أحببتم أن تهدموا وتمروا ...

أخلد العمدة فى التفكير ... وبعد عملية فحص ثانية للفرقة الصغيرة ، اتجه الى الكرسي وهو يصدر أوامر قاطعة لرجاله ... أوقف أحدهم قرب باب الشارع ، والثانى عند مدخل المكتب ، والثالث قرب النافذة .. وعندما استقر به الجلوس فى المقعد وفك ازرار معطفه الغارق فى المطر ، شعر بالامان وهو محاط بالسلاح الذريع ... ثم أسند رأسه الى مسند الرأس ، محاولا أن يتحكم فى تنفسه ...

وعندئذ التقط طبيب الاسنان بعض الادوات من الارض ووضعها فى اناء لفلها ... وظل مديرا ظهره للعمدة وهو يتأمل اللهب الازرق المنبعث من الموقد الكحولى بنفس الملامح التى لا بد كانت تعلوه وهو وحده فى المكتب ... وعندما غلى الماء لف قطعة ورق حول مقبض الاناء وحمله الى الكرسي ... فوجد الجندى يسد طريقه .. فأدلى الاناء ونظر الى العمدة من فوق البخار قائلا :

— هذا السفاح أن يذهب الى أى مكان بحيث لا يكون فى طريقى ...

وبإشارة من العمدة ابتعد الجندى عن النافذة لكي يفسح الطريق الى الكرسي ... ثم جذب مقعدا الى الحائط وجلس عليه منفرج الساقين والبندقية على فخذه دون أن ينثنى عن الرقابة ..

وما لبث طبيب الاسنان أن أضاء المصباح .. فبهر ضوءه الساطع معنى العمدة حتى أغمضهما وفتح فمه ... وكان الالم قد توقف .. حدد الطبيب مكان الضرس المضرور مستخدما أصبعه السبابة لابعاد الخد الملتهب ومعدلا وضع المصباح المتحرك باليد الاخرى ،

غير مكترث تماما بالتنفس القلق للمريض ... وبعد هذا ، شمر عن ذراعه حتى المرفق ، واستعد لخلع الضرس ...
سرعان ما طبقت يد العمدة على معصمه قائلا :
... المخدر !

ولاول مرة تلاقى أعينهما ... فقال الطبيب بنعومة :
- أنتم تقتلون الناس بلا مخدر ! ..
لم يلاحظ العمدة أى جهد لتخليص اليد المسكبة بملقط الخلع ... وقال :
- هات المخدر ! ..

وفي نفس الوقت حرك الجندي الواقف فى الركن بندقيته فى اتجاههما وسمع كلاهما الصوت واضحا .. فقال الطبيب :
- لنفرض انه لا يوجد أى مخدر ...
فتخلى العمدة عن معصم الرجل وقال وهو يفحص الاشياء المبعثرة :
- لابد من وجوده ...

جعل الطبيب يراقبه فى شئ من الرثاء ... وسالبت أن دفع رأسه الى الخلف فوق المسند وقد لاحت عليه علائم نفاد الصبر لأول مرة ، وقال :
- لا تكن ابله ، يا حضرة الملازم ... مع وجود خراج مثل هذا ، لا ينفع أى مخدر ...

وفيما بعد ، بعد أن قاسى العمدة أبشع لحظة فى حياته ، مالبت أن خفف من تأزم عضلاته ، وبقي فى الكرسي منهك القوى لا يعرف للوقت حسابا ... وقد سمع الطبيب يشغل نفسه لدى حوض الغسيل ... ثم سمعه وهو يعيد الادراج الى مكانها ويلتقط بعض الادوات من الارض ...
نادى أخيرا ! :

- روفيرا ... قل لكونزاليز أن يدخل وتقوم معه بالتقاط الاشياء من الارض الى أن يعود المكان الى حالته الاولى ...

امتلئ الجندي ... وأخذ الطبيب قطناً بملقطه وغمسه فى سائل بلون الحديد وغطى فراغ الضرس ... فشعر العمدة بشئ كاللهب عند السطح ... وبعد أن أقفل الطبيب فمه استمر مسمرا نظراته فى السقف ، معلقا سمعه بصوت رجلى البوليس وهما يحاولان أن

بعيدا من الذاكرة ترتيب المكتب كما كان ... ودق الناقوس مؤذنا
بالثانية ... وبعد لحظة أوما العمدة الى رجاله بإشارة كي يعودوا
الى الشكنات ...

وفي خلال ذلك ظل الطبيب بجانب الكرسي ... وبعد انصراف
رجال البوليس أخرج قطعة القطن من اللثة ... ثم فحص داخل الفم
بواسطة المصباح ، وضبط وضع الفكين مرة ثانية ، ثم أبعد الضوء
... وهكذا انتهت المعمة ...

قال العمدة :

- ناكر للجميل !...

وضع الطبيب يديه في جيوب « روبه » وتراجع خطوة الى الخلف
لكي يدعه يمر ... بينما استطرد العمدة قائلا وهو يبحث عنه بعينين
خلف دائرة الضوء :

- كانت الاوامر تطالب بأن يسوى بيتك بالارض !...
كانت هناك تعليمات قاطعة بأن « نعر » على أسلحة وذخائر ووثائق
بتفصيلات مؤامرة على نطاق الجمهورية ...
وركن نظراته على الطبيب وأضاف :

- كنت أظن اننى افعل الصواب بعصيانى لهذه الاوامر ... لكننى
كنت مخطئا ... ان الظروف قد تغيرت الآن ... والمعارضة لها
ضمانات ، وكل انسان يعيش في سلام ، ومع ذلك فأنت مستمر في
التفكير كمتآمر ...

مسح الطبيب وسادة الكرسي بكفه وأدارها على الجانب الآخر
الذى لم ينله الدمار ...

واستطرد العمدة قائلا وهو يشير الى الوسادة دون أن يبدى أى
التمعات لتلك النظرة المتأمللة التى أجالها الطبيب في خده :

- والآن فان الامر موكول الى حكومة البلدة لدفع تكاليف اصلاح
كل هذا العطب ، وباب الشارع المحطم أيضا ... كل هذا سيكلف
الكثير ، وكله بسبب عنادك ...

فلم يزد الطبيب أن قال :

- تمضمض بماء الحلبة ...

الفصل الرابع

استعان القاضي أركاديو بالقاموس الموجود في مكتب التلفراف لان قاموسه كانت تنقصه بعض الاحرف ... فلم يجد مايعنيه على حل لغز عبارة « الملصقات الفاحشة » ، لان المصطلح الذي عثر عليه في القاموس مرادفا للعبارة كان يشير الى كلمة « باسكان » ، وقد انضح انها اسم صانع أحذية في روما القديمة اشتهر بالاھجوان الفاحشة لتي كان يكتبها ضد كل انسان ... ومازال عليه أن يجد التكييف القانوني لفحش أو سباب مجهل يوضع على باب بيت في جنح الظلام ... وعلى الرغم من ذلك لم يشعر القاضي بخيبة أمل .. ففي غضون الدقيقتين اللتين قضاها في ذلك البحث ، شعر لأول مرة في أعوام كثيرة بالراحة التي تلبس من يؤدي الواجب ..

وما أن رآه وكيل مكتب التلفراف يعيد القاموس الى مكانه بين أكوام اللوائح والتعليمات التلفرافية والبريدية حتى قطع ارسال برقية كانت سيده ، ثم تقدم الى القاضي وهو يخلط ورقات اللعب الثلاث ، مستعدا لممارسة أحدث اللغات الشعبية ، وتخمين الورقة الرابعة ... بيد أن القاضي أركاديو لم يعره أى التفات ، واعتذر قائلا :

— أنا مشغول جدا اليوم ...

وخرج الى الشارع المتلظى بالحرارة ...

وعندما وصل الى مكتبه وجد العمدة ينتظره بمشكلة أخرى .. فقد حدث نتيجة الانتخابات، الاخيرة ان البوليس قد صادر ودمر الوثائق الانتخابية الخاصة بحزب المعارضة ، وأصبحت الاغلبية من سكان البلدة تنقصهم أية وسيلة لاثبات الهوية ... واختتم العمدة كلامه فاتحا ذراعيه :

— ان هؤلاء الناس الذين ينقلون بيوتهم ، أصبحوا لا يعرفون حتى اسماءهم ...

كان يوسع القاضي أركاديو أن يفهم أن وراء الذراعين المفتوحين حزنا صادقا .. لكن مشكلة العمدة كانت يسيرة : فكل ما كان يتعين عليه أن يفعله هو أن يطلب تعيين موظف سجل مدنى ... بل أن سكرتير المحكمة زاد هذا الحل تبسيطا بقوله :

- كل ما يلزم هو المطالبة بارساله ... فقد تم تعيينه فعلا منذ سنة ...

تذكر العمدة ... فمئذ اشهر سابقة ، عندما ابلغوه بتعيين موظف للسجل المدني ، بعث بمكالمة تليفونية للحكومة استفسهم فيها كيف يستقبل هذا الموظف ، فردوا عليه بهذه العبارة : « بالرصاص » .. أما الآن فان الاوامر التي ترد كانت مختلفة ... وهكذا التفت الى السكرتير ويداه في جيوبه قائلا :

- ابعث بمكاتبة ...

أحدث صليل الآلة الكاتبة حركة مجلجلة في المكتب ، رن صداها في كبان القاضي اركاديو ... وشعر في نفسه بالخواء ... فأخرج سمحارة مفضنة من جيب قميصه وأدارها بين راحتي يديه قبل اشعالها ... وبعدها استلقى في مقعده الى آخر مدى ، ثم قال وهو نزن كل كلمة قبل أن يفوه بها :

- لو كنت في مكانك ، اطلبت أيضا تعيين نائب للأمن العام ..

وبعكس ما كان يؤمل ، فان العمدة لم يرد على الفور ... فقد نظر الى ساعته ، لكنه لم يتطلع الى الوقت ... وانما اعتمد على قرائن احواله الخاصة بأنه لا يزال الوقت منفسحا حتى موعد الغداء ... وعندما تكلم ، كان كلامه خلوا من الحماس ، اذ لم يكن على دراية بالاجراءات التي تتطلبها تعيين نائب للأمن العام ...

وعندئذ تولى القاضي اركاديو البيان قائلا :

- جرى العرف على أن يكون تعيين نائب الامن العام عن طريق مجالس البلدة ... ونظرا لعدم وجود هذا المجلس في الوقت الحالي فان الحكومة بحكم حالة الطوارئ تخولك تعيين النائب ...

انصت العمدة وهو يوقع المكاتبة بامضائه دون أن يقرأها ... ومالئث أن اندى تعقسا حماسيا ، ولكن السكرتير كانت له ملاحظة بصمد الاقتراح الذي عرضه رئيسه ، فأصر القاضي اركاديو على رأيه باعتباره أنه اجراء طوارئ ، في ظل حكومة طوارئ ...

فقال العمدة :

- يعجبني هذا الكلام ...

ونزع « الكاب » عن رأسه لكي يروح به ... ومن كفية الترويج استخلص القاضي اركاديو أن العمدة لم ينته بعد من التفكير .. فنفض رماذ سيجارته وانتظر ...

سأل العمدة :

- هل يمكن التفكير في مرشح ؟ ...
كان الواضح انه يوجه السؤال الى السكرتير ... فردد القاضي
الكلمة مغمضا عينيه :

- مرشح ؟ ..

فتولى السكرتير الرد قائلا :

- لو كنت مكانك ، لرشحت رجلا نزيها ...

لم يفت القاضي هذا الاجراء ، ولكنه قال :

- هذا اكثر من واضح ...

وجعل ينظر الى الرجلين بالتعاقب ...

فقال العمدة :

- مثل من ؟ ...

فاجاب القاضي مفكرا :

- لا يمكننى ان افكر فى أى شخص الآن ...

واتجه العمدة الى الباب قائلا :

- فكروا فى الموضوع ... وعندما ننتهى من مشكلة الفيضان ،

سندخل فى مشكلة النائب ...

وجلس السكرتير منحنيا فوق الآلة الكاتبة الى أن تلاشى وقسع

اقدام العمدة ، وعندئذ قال :

- هو مجنون ... منذ سنة ونصف هشموا رأس النائب بكعوب

انساق ، وهاهو الآن يبحث عن مرشح لاسناد الوظيفة اليه ...

وعند هذا الحد وثب القاضي اركاديو قائما وقال :

- انا خارج ... لا اريد ان تفسد على غذائى بحكاياتك المربعة ..

وانصرف من المكتب ... وبدأ انه كان جزو الظهيرة مشروب بالشؤم

... وقد لاحظ السكرتير هذا وكان فى طبعه ميل للخرافات ...

وهكذا اسرع بدورده الى وضع القفل على الآلة الكاتبة ولحق بالقاضي

اركاديو مند باب مكتب التلغراف ، حيث كان القاضي مهتما بعرفة

ما اذا كان سر لعبة « الثلاث ورقات » ينفع فى لعبة البوكر ... ولكن

وكبل المكتب رفض كشف السر ... وانما راح يكرر اللعبة مرارا

لكى يهيم للقاضي اركاديو فرصة لاكتشاف السر بنفسه .. وراقب

السكرتير العملية أيضا حتى استخلص لنفسه النتيجة اما القاضي

اركاديو فلم يكلف نفسه حتى عناء النظر الى « الثلاث ورقات » ، اذ

كان يعلم انها نفس الورقات التى كان يختار احداها اعتباطا ، وان

وكيل مكتب التفراف كان يندمها له دون أن ينظر هو فيها أيضا ..
ولكنه قال للقاضي :

- المسألة مسألة سحر ...

على أن القاضي أركاديو لم يكن يفكر في هذه اللحظة إلا في محنة عبور
الشارع ... وعندما استسلم للمشى تعلق بذراع السكرتير وأرغمه
على أن يفتس معه في جو هذا الاتون المتقد الذي كان أقرب إلى زجاج
منصهر ... وعندما وصلا إلى ظل الرصيف تولى السكرتير شرح
لفز « الثلاث ورقات » ، وكان من البساطة إلى حد أشعر القاضي
بالخرج والفضاضة ... وسارا فترة صامتين ، إلى أن قال القاضي
فجأة منتظا :

- أنت طبعا لم تتعقب مسألة المصقات ...

تردد السكرتير برهة قبل أن يجيب :

- هذه مسألة صعبة .. ان معظم « المصقات الفاحشة » تنزع

وتمزق قبل الفجر ...

فقال القاضي أركاديو :

- هذا لفز آخر لا أفهمه ... أنا لا يمكن أن أحرّم نفسى من النوم

بسبب ملصق لم يقرأه أحد قط ...

فقال السكرتير وقد توقف بسبب وصوله إلى بيته :

- هذا هو الكلام المضبوط ... ليس الذى يمنع الناس من النوم

هو « المصقات الفاحشة » ، وإنما هو الخوف من المصقات ..

وعلى الرغم من ذلك فإن القاضي أركاديو أراد أن يعرف كل

المعلومات التى جمعها السكرتير في هذا الصدد ... فعدد له الحالات

مدعمة بالاسماء والتواريخ ... فتبين أنها إحدى عشرة حالة في خلال

سبعة أيام ... وبدأ أنه لا صلة بين الاسماء الاحد عشر ... وقد

اتفقت بيانات أولئك الذين شاهدوا « المصقات الفاحشة » على أنها

كتبت بفرشاة بحبر أزرق وبحروف مطبعية اختلطت فيها الاحرف

الكبرى بالصغرى وكأن كاتبها طفل ، وكان الهجاء من السخف بحيث

بدأ أن الأخطاء متعمدة .. ثم أنها لم تكشف عن سر ، فكل ما قيل

في المصقات كان معروفا مشاعا منذ حين ..

وقد ظل القاضي أركاديو يتداول كافة التخمينات المحتملة إلى أن

ناداه التاجر الشرقى من دكانه قائلا :

- هل معك بيزو ؟ ..

لم يفهم القاضي أركاديو ... لكنه أخرج جيوبه باطنا لظاهر ، فلم

يكن معه سوى خمسة وعشرين سنتافوا وعملة أمريكية كان محتفظا
بها كتميمة منذ أيام دراسته الجامعية ... فأخذ التاجر القطعة الأولى
قائلا :

- اشتر منى ماتشاء وادفع الباقي حين تشاء ...
وجعل التاجر العملة ترن في درج نقوده الخاوي قائلا :
- لا أريد أن يحل وقت الظهر دون أن استفتح ! ...
وهكذا ما أن دقت الثانية عشرة حتى دخل القاضي أركاديو الى بيته
محملا بالهدايا لزوجته ... وجلس على الفراش لتغيير حذائه بينما
لفت الزوجة حول قوامها قماش الحرير المطبوع ، وتصورت ماسيكون
عليه حالها بعد أن تضع مولودها ... وعندئذ منحت زوجها قبلة على
أنفه .. فحاول أن يتجنبها ... ولكنها هوت عليه بجسدها فوق
الفراش .. ولبثا هنيهة دون حراك .. فما عثمت أن رفعت رأسها
وغمغمت قائلة من خلال أسنانها المطبقة :

- انتظر حتى أغلق الباب ...
انتظر العمدة الى أن تم بناء آخر بيت ...
في خلال عشرين ساعة بنوا شارعا كاملا ، متسعا وعاريا ، انتهى
مرة واحدة عند المدافن ... وبعد أن عاون العمدة في وضع أثاث
البيوت ، عاملا كتفا لكتف مع أصحابها ، مختنقا من الحر والعرق
- دخل الى أقرب مطبخ ...
كان الحساء يغلي فوق موقد حجري على الأرض ... ومالبث أن
رفع غطاء أناء الفخار وتشمم البخار برهة ... وعن كذب من الموقد
وقفت امرأة ناحلة ذات عينين واسعتين مسالمتين تراقبه صامته ..
قال العمدة :

- هذا وقت الغداء ...
لم ترد المرأة ... فما كان من العمدة الا أن اغترف لنفسه صحيفة
من الحساء بغير دعوة ... وعندئذ ذهبت المرأة الى غرفة النوم
وجاءت بكرسي وضعت به بجانب العمدة لكي يجلس عليه .. وفيما كان
يتناول الحساء راح يفحص حوش الدار بشيء من الرهبة والوجل ..
فبالأمس فقط كانت رقعة الأرض كلها جرداء خاوية ... أما الآن
فهذا « غسيل » معلق لكي يجف ، وخنزيران يلغان في الوحل ..
قال لها العمدة مرة ثانية : يمكنكم أيضا زراعة بعض الخضر .
فردت المرأة قائلة دون أن ترفع بصرها :
- لو فعلنا لاكلتها الخنازير ...

- يمكنكم أيضا زراعة بعض الخضر ...
ولم تلتصق المرأة أن وصفت له في نفس الصحيفة قطعة من اللحم
المسلوق وشريحتين من نبات الكسافا « مثل القمح » ونصف ثمرة
موز هندي وحملتها الى المائدة ... وفي بادرة الكرم هذه ، كانت المرأة
تبدى بطريقة سافرة جليلة فتورا بالفا لا يخفى عن العين ... أما
العمدة فقد تلقى هذا بالابتسام ... والتمس عيني المرأة بعينيه ،
قائلا :

- الطعام هنا يكفي الكل ...
فقلت المرأة دون أن تنظر اليه :
- ادعوا الله أن يستليك بعسر الهضم ...
تجاوز العمدة عن هذا الدعاء الشنيع ... وتفرغ بكليته لفدائه ،
غير عابئ بمسيل العرق المتدفق اسفل عنقه ... ولما فرغ رفعت
المرأة الصحيفة الخالية ولمزالت لا تنظر اليه ... فسألها العمدة :
- الى منى أيها الناس ستبقون على هذا المسلك ؟..
فأجابت المرأة دون أن تغير جمودها :
- الى أن تعيدوا لنا أنتم ياناس الموتى الذين قتلتموهم ، الى
الحياة ...

فقال العمدة شارحا مفسرا :
- الحال مختلف الآن ... ان الحكومة الجديدة مهتمة برفاهية
مواطنيها ... وانتم ياناس ، من الناحية الاخرى ...
قاطعت المرأة قائلة :

- أنتم نفس الناس ، ونفس ...
فعاجلها العمدة باصرار قائلا :
- ان منطقة كهذه ، بنيت في مدى أربع وعشرين ساعة ، هي شيء
لم تشهدود من قبل أبدا ... اننا نحاول أن نبني بلدة لائقة ..
رفعت المرأة « الغسيل » النظيف عن الحبل وحملتة الى غرفة
النوم .. فظل العمدة يتبعها بنظرانه الى أن سمعها ترد
بقولها :

- ان هذه البلدة كانت لائقة قبل مجيئكم أيها الناس ..
لم يشأ العمدة أن ينتظر القهوة ، وقال :
- ناكرون للجميل ... اننا نعطيكم أرضا ومع ذلك لا تزالون
تشكون ...

لم ترد المرأة ... ولكن عندما اجتاز العمدة المطبخ في طريقه الى الشارع ، غمغمت المرأة قائلة :
- سيكون حالنا هنا أسوأ ... نكننا سوف نظل نتذكرهم أيها الناس بموتانا الراقدين هناك ...

حاول العمدة أن ينام فترة القيلولة انتظاسا لوصول الزوارق النهرية .. بيد أنه لم يستطع مغالبة العز .. وكان ورم خده قد بدأ يخف ... ومع ذلك لم يشعر بأنه عوف ... وظل يتبع بعين الخيال مجرى النهر مدى ساعتين ، منصتا الى طنين ذبابة الحصاد داخل الغرفة .. وفي خلال ذلك لم يفكر في أى شيء ...
وعندما سمع صوت محركات الزوارق خلع ملابسه وجفف عرقه بمنشفة وغير كسوته الرسمية ... ثم بحث عن مذبته وأمسك بها بين ابهامه وسبائته وخرج الى الشارع .. ومن بين الجمهور المحتشد الذى كان فى انتظار وصول الزوارق خرج سبى نظيف حسن الثياب قطع طريق العمدة ببندقية آلية من البلاستيك ... فأعطاه العمدة « المنشة » ...

وبعد لحظة كان جالسا فى دكان التاجر الشرقى يراقب الزوارق وهى تلقى مراسيها ... وفى مدى عتير دقائق كان الميناء النهري يعج بالحركة ... وشعر العمدة بثقل فى معدته ولمسة صداع ، وسرعان ما تذكر « دعاء » المرأة عليه ... ومالبت ان انحسار الى السكنة وأخذ يراقب ركاب الزوارق وهم يهبطون الى البر محركين عضلاتهم بعد ثمانى ساعات من عدم الحركة ... وفى هذا غمغم قائلا :

- مشكلة بعد مشكلة ..

ومالبت التاجر أن استرعى نظره الى شيء جديد : هو وصول سيرك الى البلدة ... وتحقق العمدة من هذا لدى رؤية الأعمدة الخشبية والقماش الملون المكدسة فوق سطح الزورق ، فضلا عن وجود امرأتين متشابهتين تماما متشحتين برداءين متماثلين تكسوهما زهور مطبوعة ...

غمغم العمدة معقبا :

- صحيح ... هذا سيرك فعلا ...

أخذ التاجر يتحدث عن الحيوانات المفترسة وعن ألعاب الحواة ، بيد أن العمدة فكر فى السيرك بطريقة مختلفة ... فقد جلس مسادا

ساقيه ينظر الى طرفى حدائه العالى ، قائلا :

- البلدة فى تقدم ...

وكف التاجر الشرقى عن الترويج بالمروحة قائلا للعمدة :

- هل تعرف بكم بعث اليوم ؟ ..

لم يجازف العمدة بأى تخمين ، وانتظر الرد ... فقال التاجر :

- بخمسة وعشرين سنتافو ...

وفى هذه اللحظة ابصر العمدة وكيل البريد يفتح حقيبة البريد الوارد ويعطى الدكتور جيرالدو رسائله ... فناداه العمدة .. لقد ورد البريد الرسمى فى مطروف مميز .. ففرض العمدة اختتام الشمع ووجد مكاتبات روتينية بمطبوعات دعائية لنظام الحكم القائم ... وعندما فرغ من الاطلاع عليها كان رصيف الميناء قد اخلى من صناديق البضائع الواردة والدجاج المجدد ومنقولات السيرك الغريبة ... وفى خلال ذلك بدا الفسق ... فمالث العمدة أن نهض قائما وهو يتنهد قائلا :

- خمسة وعشرون سنتافو ! ..

فردد التاجر الكلمات بصوت متحجر :

- خمسة وعشرون سنتافو بالتمام والكمال ...

وظل الدكتور جيرالدو يراقب تفرغ شحنة الزوارق حتى النهاية ... وكان هو الذى لفت نظر العمدة الى امرأة متينة البنيان مهيبة الطلعة تكسو ذراعيها أساور كثيرة ... وبدا أنها كانت تنتظر شخصية ذات شأن وهى تحت مظلتها الكثيرة الالوان ... فلم يتوقف العمدة لكى يفكر فيما يكون القادم ، وقال :

- لابد أنها مروضة الوحوش ...

فقال الدكتور جيرالدو وهو يضغط على الكلمات بصفين من الاسنان الصناعية :

- هى حماة سيزار مونتيرو ...

تابع العمدة سيره متباطئا ... ونظر الى ساعته ... كانت الرابعة الا ثلثا .. وعند باب الشكنات ابلغه الحارس أن الاب انجيلو ظل ينتظر مدى نصف ساعة ، وأنه سيعود فى الساعة الرابعة ..

ولما عاد الى الشارع مرة أخرى وهو لا يعرف ماذا يفعل ، لمسح طبيب الاسنان فى نافذة مكتبه ، فاتجه اليه يطلب منه ثقابا لسيجارته ... فأعطاه ماطلب وهو ينظر الى الخد الذى مازال مورما ... فقال العمدة :

- حالتى تمام التمام ...
 وفتح فمه .. فنظر الطبيب متفحصا ، ثم قال :
 - توجد فراغات كثيرة لابد من ملئها ...
 عدل العمدة المسدس المعلق الى وسطه ، وقال :
 - سأحضر قريبا ...
 - تعال كلما شئت ، لكى ترى ان كانت رغبتى فى ان تلقى حتفك
 فى بيتى سوف تتحقق ...
 ربت العمدة على كتفه وقال متبسطا :
 - لى يكون هذا ...
 ثم أضاف قائلا وهو مفتوح الذراعين :
 - ان اسنانى فوق سياسة الحزب ...

 قال الاب انجيلو لزوجة القاضى اركاديو :
 - اذن لا تريدين أن يعقد زواجك رسميا ؟ ..
 فمدت ساقها قائلة :
 - لا امل فى هذا البتة يا ابتاه .. وحتى مع قرب أن يكون لى ولد
 فالامل اقل ...
 أشاح الاب انجيلو بنظره الى ناحية النهر ، حيث شوهدت بقرة
 غريقة يجرفها التيار وتعلوها طيور الباز ...
 فقال الاب :
 - لكنه سيكون ابنا غير شرعى ...
 فقالت :
 - هذا لا يهم .. ان اركاديو يعاملنى الآن معاملة طيبة .. اما اذا
 جعلته يتزوجتنى شرعا فسوف يشعر بالقيد الذى يكبله بى ، ومن ثم
 يجعلنى أدفع الثمن ...
 كانت تتكلم وقد خلعت القبقاب ورفعت قدميها الى عارضة المقعد
 الصغير الذى جلست عليه منفرجة الركبتين وتركت المروحة فى
 حجرها وشبكت ذراعيها . فوق بطنها المتضخم ، ثم كررت قولها
 عندما وجدت القس قد التزم الصمت .
 - لا امل فى هذا البتة يا أبى ... ان دون ساباس قد اشترانى
 كجارية نظير مائتى بيزو ، وامتنص رحيقى عن آخره فى ثلاثة شهور
 وبعد ذلك رمانى فى الشارع مثل كلب .. ولولا أن اركاديو اخذنى
 عنده لتضورت جوعا ...

ولاول مرة تطلعت الى عيني القس ، ثم اضافت :
 - ... او لاصبحت مومسا ...
 لقد ظل الاب انجيلو يبلع عليها بعقد الزواج طوال ستة اشهر ..
 ومالبث الآن ان قال :
 - الواجب ان تجعليه بعقد زواجك ويؤسس اسرة شرعية .. اما
 هذه الطريقة ، الطريقة التى عليها حياتك الآن ، فانها لاتجعلك فقط
 فى موقف محفوف بالمخاطر ، بل هى ايضا مثل سيئ للبلدة ...
 فقالت :
 - الافضل ان نفعل الافعال بصراحة ... الآخرون يفعلون نفس
 الشيء ولكن متسترين باطفاء النور ... الم تقرا الملصقات الفاحشة ؟
 فأجاب القس :
 - هذه ثرثرة واقاويل ... عليك ان تضعى الصفة الشرعية لموقفك
 وتبعدى نفسك عن دائرة اللسنة الثرثرة المتقولة ...
 فقالت :
 - انا ؟ .. انا غير مجبرة على ابعاد نفسى عن دائرة اى شيء ، لانى
 افعل كل شيء فى وضوح النهار ... والدليل على هذا أنه لا احد قد
 ضيع وقته بوضع اى ملصقات فاحشة على باب دارى - فى حين أن
 كل الناس المحترمين فى الميدان قد وضعت على أبوابهم هذه الملصقات .
 فقال القس :
 - هذه حماقة منك ... ان الله قد هيا لك حظا حسنا اذ اعطاك
 رجلا يحترمك ... ومن أجل هذا السبب ذاته عليك أن تتزوجى
 شرعيا وتسبغى هذه الصفة على بيتك ...
 فقالت له :
 - انا لا افهم هذه الامور .. لكن على اى حال ، فبالوضع الذى
 انا فيه قد تهيأ لى مكان انام فيه وطعام وفير آكله ...
 - وماذا لو هجرك ؟ ..
 فعضت على شفتها .. ثم ابتسمت ابتسامة غامضة وهى تقول :
 - انه ان يهجرنى يا ابى .. انا اعرف لماذا اقول لك هذا ..
 بيد ان الاب انجيلو لم يعتبر انه انهزم هذه المرة .. وقد أوصاها
 ان تأتى على الاقل لحضور القداس .. فأجابت بأنها قد تفعل هذا
 (يوما من الايام) .. ومضى القس فى مسيرته انتظارا لموعده مع
 العمدة .. وقد استوقفه احد التجار الشرقيين مسترعيا نظره الى
 تحسن الطقس ، بيد انه لم يعبا به .. وكان اهتمامه موجها الى

عملية تفريغ أدوات السيرك ونقل الوحوش القلعة فى فترة الاصيل
هذه ذات الوضع النادر ... وقد لبث عن كتب الى ان حانت الساعة
الرابعة ...

وكان العمدة منصرفا من عند طبيب الاسنان عندما أبصر الاب
انجيلو قادما ... فقال له وهو يضافحه :
- دقة فى المحافظة على المواعيد ...

فقال الاب انجيلو :
- وتصميم على صعود سلالم الثكنات الراسية ...
- حتى لو كانت نهاية الدنيا ...

وبعد دقيقتين سمح للأب انجيلو بدخول غرفة سيزار مونتيرو ...
وبينما كان الاب انجيلو يمارس اجراءات الاعتراف جلس العمدة
فى الردهة يفكر فى السير ويتخيل مشاهدة : امرأة تتعلق بأسنانها فى
ألهاء على ارتفاع عشرين قدما ، ورجل فى كسوة زرقاء موشاة
بالذهب يذق طبلا مدويا ... ولم يمض الا نصف ساعة حتى خرج
الاب انجيلو من غرفة سيزار مونتيرو ، فسأله العمدة :

- هل تم كل شيء ؟ ..
فقال القس :

- أنتم ياناس ترتكون جرما ... ان هذا الرجل لم يأكل منذ
خمسة أيام ... ان بنيته فقط هى التى مكنته من البقاء على قيد
الحياة ...

فقال العمدة بهدوء :

- هذا مايربده ..

فقال القس بقوة :

- هذا غير صحيح ... انك امرت بألا ينال طعاما ...

فقال العمدة معترضا :

- حذار يا ابتاه ... انت تنتهك سرية الاعتراف ..

فرد القس قائلا :

- ليس هذا جزءا من اعترافه ...

فوثب العمدة قائما ... وقال وهو يضحك فجأة :

- لا تستسلم للانفعال ... اذا كانت المسألة تقلقك الى هذا الحد

فسنعمل على تسويتها حالا ...

ونادى جنديا وأمره باحضار طعام من الفندق لسيزار مونتيرو ،

قائلا :

- كلهم بارسال دجاجة كاملة ، سميكة وممتازة ، على طبق
 طاطس ، وطبق سلطة ...
 وأضاف موجهها كلامه للقس :
 - وكل هذا على نفقة الحكومة يا أبى ... وهكذا ترى كيف تغيرت
 الاحوال ...
 اطرق الاب انجيلو ، وقال :
 - متى ترسلونه من هنا ؟..
 فأجاب العمدة :
 - أن الزوارق ستبحر غدا ... اذا استمع الى صوت العقيل
 هذه الليلة ، فسوف يذهب غدا ... كل ماعليه هو أن يدرك أننى
 احاول أن أسدى اليه معروفا ...
 فقال القس :
 - معروف مكلف ...
 فقال العمدة :
 - لا يوجد معروف لا يكلف الانسان الذى يناله بعض المال ..
 وركز العمدة عينيه فى عيني الاب انجيلو الزرقاوين الصافيتين ،
 وأضاف قائلا :
 - املئ أن تكون جعلته يفهم هذه الامور ...
 لم يرد الاب انجيلو ... واتجه الى السلام وألقى السلام بنبرات
 جامدة ... وما لبث العمدة ان اجتاز الردهة ودخل الى غرفة سيزار
 مونتيرو دون أن يطرق الباب ...
 كانت غرفة بسيطة ، ليس بها سوى سرير حديدى وحوض غسل
 ... وكان سيزار مونتيرو ممددا فوق السرير وهو غير حليق الوجه
 وبنفس الملابس التى كان يرتديها حينما خرج من بيته يوم الثلاثاء
 فى الاسبوع الفائت ... بل انه لم يحرك حتى عينيه عندما سمع
 العمدة يقول له :
 - الان وقد سومت موقفك امام الله ، فليس هناك شيء اكثر عدلا
 من أن تفعل نفس الشيء معى ...
 وجذب العمدة مقعدا الى الفراش واداره وجلس مسندا صدره الى
 ظهر المقعد ... اما سيزار مونتيرو فقد ركز اهتمامه على السواح
 السقف ... ولم يكن يبدو عليه أى قلق بالرغم من أن الحوار الطويل
 الذى ادارده فيما بينه وبين نفسه قد ترك آثاره على اطراف فمه ...
 والمالبث أن سمع العمدة يقول :

– أنت وأنا ، لسنا بحاجة الى ألف وألذوران ... انك مرحل
غدا ... واذا كنت محظوظا ففى خلال شهرين او ثلاثة سيصل الينا
محقق خاص ... والامر موكول الينا لكى « نملأه » ونوجهه التوجيه
المطلوب ... وعندما تعود الينا الزوارق فى الاسبوع القادم ،
فسوف ترجع الينا مقتنعا بأنك أتيت عملا طائشا ...
وتوقف العمدة ... بيد ان سبزار مونتيرو ظل على جموده ، فمضى
العمدة قائلا :

– وفيما بعد – بين المحاكم والمحامين – سوف يعتصرون منك
عشرين ألف نيزو على الاقل ... وربما أكثر من هذا اذا بدا للمحقق
الخاص ان يخبرهم بأنك مليونير ...

لم يلبث سبزار مونتيرو أن أدار رأسه الى ناحيته ... كانت
حركة يسيرة لا تدرك ، لكنها جعلت السرير يتر ...
واستطرد العمدة قائلا بصوت الناصح الروحاني :

– وباختصار ، وبعد المحاورات والمداورات ، سوف يتحفونك
بسنتين ، اذا سارت الامور معك على مايرام ...

أحس العمدة انه محل النظر والفحص من قمة رأسه الى أخمص
قدميه .. وعندما استقرت نظرات مونتيرو الفاحصة على عينيه ،
لم يتوقف عن الكلام ، وان غير لهجته قائلا :

– ان كل ماتملك ، أنت مدين به لى .. كانت الاوامر الصادرة لى
هى أن أستأصل وجودك ... كانت هناك اوامر لقتلك فى كمين
ومصادرة قطعان مواشيك ، حتى تجد الحكومة الوسائل للسوفاء
بالنفقات الضخمة التى اقتضتها الانتخابات فى طول البلاد وعرضها ..
وانت تعرف ان العمدة الآخرين قد فعلوا هذا فى البلدان الاخرى ...
اما نحن هنا ، فقد عصبنا الاوامر ...

فى هذه اللحظة تبين العمدة اول بادرة تشير الى ان سبزار
مونتيرو أخذ الى التفكير ... ففتح ساقيه ، ومال بذراعيه على ظهر
المقعد ، واستطرد يقول :

– مامن سنتافو واحد مما دفعته ثمنا لحياتك دخل جيبي ... كل
شئ تم انفاقه على تنظيم حملة الانتخابات ... والآن فقد استقر
عزم الحكومة الجديدة على كفالة السلام وضمانات الامن لكل انسان ،
وانا وحدى أعانى الافلاس بمرتبى ، فى حين انك غارور فى الاموال ..
فانت الآن امام صفقة طيبة ...

بدأ سيزار مونتيرو المهمة الشاقة وهي النهوض من رقدته ...
وعندما وقف ، رأى العمدة نفسه ضئيلا وكاسفا وهو في مواجهة
هذا المارد العملاق ... وكانت نظراته مشوبة باللهف وهي تتابعه
الى النافذة ، وقد غمغم قائلا :

— ... وهي في الواقع افضل صفقة في حياتك ...
كانت النافذة تطل على النهر ... فلم يكد سيزار مونتيرو يعرف
معامله ، وخيل اليه انه في بلدة اخرى ، وامام نهر آخر ... وسمع
من خلفه صوت العمدة وهو يقول :

— اننى احاول مساعدتك ... كلنا نعرف ان ما فعلت كان بدافع
الشرف ، ولكن سيكون من الصعب اثبات هذا ... وانت قد أسأت
التصرف بتمزيق القصاصة الفاحشة التي الصقت على بابك ...
في هذه اللحظة اجتاحت الفرفة رائحة قوية مقرزة ، وقال
العمدة :

— البقرة الفريقة ... لاند ان التيار حملها الى مكان قريب ..
ظل سيزار مونتيرو لدى النافذة ، غير مبال بالرائحة العفنة ...
وكان الشارع خاليا من كل انسان .. وعند المرسى النهري استقرت
ثلاث زوارق ، انشغل بحارتها باقامة اراجيحهم استعدادا للنوم ..
لكن الصورة سوف تختلف في اليوم التالي ، عند الساعة السابعة
صباحا : فعلى مدى نصف ساعة سيكون الميناء الصغير فى حالة
اضطراب ، انتظارا لنقل السجين ...

لم يتمالك سيزار مونتيرو أن تنهد .. ودس يديه فى جيوبه ..
وفى عزم وتصميم ، ولكن بغير عجلة ، كان جماع افكاره كلها فى
كلمتين :

— كم تطلب ؟ ..

جاء الرد فى الحال :

— قيمة خمسة آلاف بيزو من المواشى الحولية ...

فقال سيزار مونتيرو :

— وفوقها خمسة عجول وليدة ... وعليك ترحيلى هذه الليلة
ذاتها ، بعد نهاية العرض السينمائى ، فى زورق سريع ...

الفصل الخامس

اطلق الزورق صفارته ، وتحرك يمخر عباب النهر ، وأبصر الجمهور المحتشد على الرصيف والنساء المطلات من النوافذ روزاريو مونتيرو وآخر مرة وقد جلست بجانب أمها فوق نفس صندوق الامتعة المعدنى الذى هبطت به الى البلدة منذ سبع سنوات . . . وبدأ للدكتور اوكتافيو جيرالدو وكان يحلق ذقنه فى نافذة مكتبه كأنها رحلة للعودة الى عالم الواقع ، وأن ماضى من هذه الاعوام كان أقرب الى الخيال . . .

لقد شاهدها الدكتور جيرالدو عصر اليوم الذى هبطت فيه الى البلدة فى ذلك العهد ، مرتدية زى المعلمة البالى ، والحذاء الرجالى ، تسأل على رصيف المرسى من يحمل بأقل أجر صندوق أمتعتها الى المدرسة . . . وكان يبدو من طوالها أنها على استعداد لكى تتقدم بها السن دون أن يراودها أدنى طميح فى هذه البلدة التى لم تعرف باسمها لأول مرة - طبقا لما روته على لسانها - الا عندما أجريت القرعة بينها وبين زميلاتها المرشحات لشغل وظائف المعلمات فى المدارس الست المحددة . . . وهكذا استقر بها المقام فى غرفة صغيرة بالمدرسة ليس بها أكثر من سرير حديدى وحوض غسيل ، مستغلة وقت فراغها فى تطريز مفارش المائدة وهى تطهى طعامها على الموقد الصغير . . .

وفى ذلك العام ذاته ، فى عيد الميلاد ، التقت بسيزار مونتيرو فى حفل مدرسى . . . وكان شانا أعزب جموحا مجهول الاصل ، اغتنى من نجارة الأخشاب حيث كان يعيش فى الغابة العذراء بين قطيع من كلابه الوحشية ولا يظهر فى البلدة الا فى مناسبات نادرة ، وهو دائما غير حليق الوجه ، منتعلا حذاءه العالى المعدنى الحوافى ، ومحتقبا بنديته المزدوجة القصيرة . . . فكان هذا اللقاء كان بمثابة فوز آخر أصابته فى القرعة . .

بهذه الخواطر جرت أفكار الدكتور جيرالدو وهو يغطى ذقنه برغوة الصابون ، عندما انتزعته من ذكرياته رائحة مقززة أخذت عليه منافذ التنفس . . .

فى هذه اللحظة تفرق سرب من جوارح الباز على الشاطئ المقابل ،

بعد أن أفرغته الامواج المتدافعة في أثر الزورق المتبعد .. اما الرائحة العفنة فقد حومت حول الرصيف فترة ، مختلطة بنسيم الصباح ، بل امتدت حتى نفذت الى أعماق البيوت ...

ولم يتمالك العمدة أن هتف وهو في شرفة غرفة نومه يراقب الطيور المتباعدة :

— يالها من رائحة شنيعة ... من بقرة لعينة !..

ولم يلبث أن غطى أنفه بمنديل وأغلق باب الشرفة ... فلم تذهب الرائحة وظالت جاثمة في الداخل .. فعمد الى مرآة علقها في مسمار وأنشأ يحاول بأنهم حذر خلق خده الذي لم يزل ملتها بعض الشيء ... وبعد برهة جاء رئيس السيرك يطرق الباب ...

طلب اليه العمدة أن يجلس ، وأخذ يتأمل في المرآة وهو يحلق .. كان يرتدى قميصا بمربعات سوداء وبيضاء ، وبنطلون ركوب منتفخ الساقين ، ويده سوط راح يضرب به على ركبته ضربات منتظمة .. وقال العمدة عندما فرغ من جذب الموسيقى فوق جذور الشجر الذي نمت في أسبوعين من العذاب :

.. انني تلقيت حتى الان أولى الشكاوى منكم ايها الناس .. وهذا في الليلة الماضية فقط ...

— وماهي هذه الشكاوى ؟..

— هي أنكم تبعثون بصيبة لسرقة القطط ..

فقال رئيس السيرك :

— هذا غير صحيح ... ان كل قطة يؤتى بها اليها نشتريها بالرطل

دون أن نسأل عن مصدرها ، لكي نطعم بها الوحوش ...

— هل تلقون بالقطط حبة ؟ ..

— آه ... لا ... ان هذا قد يؤدي الى اثار غرائز الحيوانات

المتوحشة ...

التفت اليه العمدة بعد غسل وجهه وهو يدلكه بالمنشفة . ولم يكن حتى وقتئذ قد لاحظ أن الرجل يتختم في معظم أصابعه بأحجار ملونة .. وقال له :

— لا بأس .. لابد لكم من التفكير في طريقة أخرى .. اصطادوا

التماسيح اذا أردتم ، أو استغلوا الاسماك التي توشك على الفساد في هذا الجو ... لكن دعوا القطط ولا تعبثوا بها ...

هز رئيس السيرك كتفيه وتبع العمدة الى الشارع حيث كانت

جماعات من الرجال تتجاذب الحديث قرب رصيف الميناء بالرغم من رائحة البقرة الكريهة التى استقرت لدى الشاطئ المواجه بين العواسج والاغصان الشائكة ...

ولم يلبث العمدة ان صاح فى الناس :

— انتم ياتافهين ! .. بدلا من الوقوف هكذا لاشغل لكم غير الثروة مثل النساء ، كان الواجب عليكم ان تنشغلوا منذ أمس بتنظيم حملة لتعويهم تلك البقرة بعيدا عن هنا ! ..

ولما احاط به بعض الرجال عرض عليهم فكرته :

— خمسون بيزو للرجل الذى يأتينى بقرنى البقرة فى خلال ساعة ...

سرعان ماتفجر الهرج عند الرصيف .. وتواثب بعض الرجال الى قواربهم الصغيرة وهم يتنافسون مبتعدين وصياحهم يتردد صده .

وقال العمدة مضاعفا المبلغ وقد تزايد حماسه :

— مائة بيزو ! .. خمسون لكل قرن ! ..

وصحب رئيس السيرك الى نهاية الرصيف وظلا ينتظران الى وصل اول القوارب الى كتيان الشاطئ الآخر ... وعندئذ استدار العمدة الى الرجل باسمه وقال له :

— هذه بلدة سعيدة ...

أوماً رئيس السيرك مؤمنا على كلام العمدة ، بينما استطرد هذا قائلا :

— ان العيب الوحيد هنا هو ان الناس يفكرون كثيرا فى التفاهات لانهم لا يجدون ما يفعلونه ...

وفى هذه اللحظة بدأ بعض الاطفال يتجمعون حولهما ، فقال رئيس السيرك :

— عندكم السيرك هناك ...

ومالبث العمدة ان ساقه من ذراعه فى اتجاه الميدان ، قائلا :

— ماذا تفعلون فى السيرك ؟ ..

فاجاب الرجل :

— كل شيء ... عندنا عروض كاملة للاطفال ، وللكبار ..

فقال العمدة :

— هذا لا يكفى .. يجب ان يكون رسم الدخول فى مقدور الجميع ...

فقال رئيس السيرك :

- اننا سنراعى هذا أيضا ...

وانقلا معا الى أرض فضاء خلف دار السينما حيث كان يجرى إقامة الخيمة .. كان رجال ونساء صامتون منهمكين في اخراج القلويع ذات الالوان الزاهية من الناقلات الضخمة المطوقة برسوم خيالية ... وفي طواف العمدة مع رئيس السيرك بين زحام العاملين وهرجهم وهو يصافح كلا منهم يدا بيد - خيل اليه كأنه بين حطام سفينة ٧ اول له ولا آخر ... وقد التقى بينهم بامرأة قوية البنية بادية العزيمة ، مذهبة الاسنان ما ان صافحته حتى فحصت يده فائتلة :

- هناك شيء غريب فى مستقبل حياتك ..

وهنا سارع العمدة بسحب يده عاجزا عن مغالة احساس عارض بالانقباض ... فلمس رئيس السيرك ذراعها بطرف سوطه قائلا :

- دعى الملازم وشأنه ...

وصحب العمدة الى الجانب الخلفى للساحة ، حيث كانت الحيوانات .. وقال له :

- هل تؤمن بكل ماتقوله هذه المرأة ...

فرد العمدة قائلا :

- حسب الاحوال ...

فقال رئيس السيرك :

- انهم لم يقدروا أبدا على اقناعى ... عندما يعايش الانسان مثل هذه الاشياء ينتهى به الامر الى تصديق شيء واحد هو الإرادة البشرية ...

راح العمدة يتأمل الحيوانات التى كانت فى شبه حذر بسبب الحر ... وكان ينبعث من الاقفاص بخار حار لاذع ، وكان تنفس الوحوش الرتيب ذاته يحكى عن لون من الضنى واليأس ... ومالبث رئيس السيرك ان ربت بسوطه على أنف فهد وهو يتحفز للزمجرة .. فقال العمدة :

- ماهو الاسم ؟ ..

- أرسطو ...

فوضح العمدة سؤاله قائلا :

- أقصد اسم المرأة ..

فقال رئيس السيرك :

- آه .. اننا نسميها كاساندرا ، مرآة المستقبل ...

فاصطنع العمدة علائم الكآبة قائلا :

- كم انتهى مثلها ...

فقال رئيس السيرك :

- كل شيء جائز ...

فتحت الارملة مونتييل نوافذ غرفة نومها مغممة :

- رجال مساكين ...

وعكفت على ترتيب منضدتها الليلية ، وأعادت المسبحة وكتاب الصلاة الى الدرج ، ومسحت نعلى شبشبها المخضر اللون في جلد « الجاغوار » المبسوط أمام فراشها ... وبعد ذلك قامت بدورة كاملة في الغرفة لاجلاق « التسريحة » وأبواب دولاب الملابس الثلاثة ودولاب مربع يعلوه تمثال من المصيص للقديس رافائيل ... وفي النهاية أوصدت الغرفة ...

وفيما هي تهبط في السلالم العريضة المبنية بالاحجار والمزدانة بالنقوش لم تتمالك أن فكرت في روزاريو مونتيرو ومصيرها الغريب .. فعندما أصبحت من فرجات شرفتها وهي تعبر الى رصيف الميناء بهدوء وعزم تلميذة المدرسة التي دربت على ألا تتلفت برأسها - بدا لها أن شيئا كانت بدايته منذ عهد طويل قد أشرف الآن على نهايته .. ولما وصلت الى « البسطة » أشرفت على الحوش المليء بسلع السرق الرخيصة ... ففي احد الجوانب قامت منصة فوقها أنواع الجبن ملفوفة في اوراق شجر طازجة ... وفي جناح خارجي تراصت اكياس الملح وقرب العسل ... وفي أقصى الخلف كان الاسطبل ببيغاله وخيوله والسروج المعلقة في العوارض الخشبية البارزة .. وكان البيت كله مشعاً بروائح الحيوانات المدجنة والجلود المدبوغة والاقتصاب المطحونة ..

وفي الكتب صحت على مستر كارميكل الذي كان يرسم رزم النكنوت على المنضدة وهو يدون المبالغ في سجل الحسابات ... وعندما فتحت النافذة المظلة على النهر ، غمر ضوء النهار في هذه الساعة التاسعة من الصباح غرفة المعيشة ، التي كانت مكتظة بمقاعد محشوة كبيرة ، وعلقت بها صورة مكبرة لجوزيه مونتييل حف باطارها اكليل جنازى ... وقد فطنت الارملة الى رائحة العفن الآتية من

الخارج فلما وقع نظرها على القوارب الصغيرة المتنافسة على كسبان
الضفة البعيدة ...

قالت :

- ما الذى يجرى فى الضفة الاخرى ؟..

فاجاب مستر كارميكل :

- انهم يحاولون تعويم بقرة ميتة ...

فقالت الارملة :

- هذه هى الحكاية اذن ! ... اننى كنت طول الليلة احلم

بالرائحة ...

ثم ارسلت نظرها الى الرجل وهو منهمك فى عمله ، وازافت :

- والآن فان كل مانحتاج اليه هو الطوفان ...

فقال مستر كارميكل دون ان يرفع نظره :

- انه بدأ منذ اسوعين ...

فايدته قائلة !

- هذا صحيح ... الآن قد وصلنا الى النهاية .. وكل ماهر

مطلوب ان نفعله هو ان يرقد الانسان فى قبر فى الشمس والظل الى ان

يدركنا الموت ..

كان مستر كارميكل يستمع اليها دون ان يقطع عملياته الحسابية

... فأردفت الارملة تقول :

- كنا منذ سنوات نشكو من انه لم يحدث اى شىء فى هذه البلدة

... ثم فجأة بدأت الكارثة ، وكان الله قد هيا كل شىء ، بحيث ان

مالهم يحدث طوال تلك السنين بدأ يحدث على التوالى ...

تلقت مستر كارميكل لكى ينظر اليها وهو لدى الخزانة ، فراها

متكة بمرفقيها على النافذة وعيناها مركزتان على الضفة المواجهة ،

وكانت مرتدية ثوبا اسود طويل الاكمام وراحت تقرض اظافرها ...

فقال لها :

- عندما يتوقف المطر ، سيتحسن كل شىء ...

فقالت متنبئة :

- لن يتوقف ... ان المصائب لا تأتى فرادى ابدا ... الم تر

روزاريو مونتيرو ؟...

لقد رآها . واجاب قائلا :

- كل هذا فضيحة لا معنى لها .. اذا اهتم الانسان بالملصقات
الفاحشة ، فسينتهى به الامر الى الجنون ..

تنهدت الارملة ، وقالت :

- الملصقات الفاحشة !...

فقال مستر كارميكل :

- انهم وضعوا فعلا ملصقا على بابى ...

- انت ؟..

فاجاب مؤكدا :

- نعم ... انهم وضعوه بحجم كبير جدا وبوضوح تام ، يوم

السبت فى الاسبوع الماضى ... كان اشبه باعلانات السينما الكبيرة .

جذبت الارملة مفعدا الى جانب المكتب وهتفت قائلة :

- هذا شىء فاضح مخجل ... ليس هناك شىء يمكن ان يقال عن

اسرة مثالية مثل اسرتك ...

لم يبد انزعاج على مستر كارميكل ، وتولى البيان قائلا :

- لما كانت زوجتى بيضاء ، فقد كان الاولاد من كافة الالوان ...

تصورى .. احد عشر ...

فقالت الارملة :

- بالطبع ...

- لا بأس ... قال الملصق اننى اب الابناء الملونين فقط ... وعدد

الملصق آباء الابناء الآخرين ... بل انهم زجوا باسم دون جوزيه

مونتييل ، عليه رحمة الله ...

- زوجى ؟ !..

فقال كارميكل :

- زوجك ، وازواج اربع سيدات اخريات ...

انشأت الارملة تنتحب ، وراحت تقول :

- من حسن الحظ ان نأتى بعيدات فى الخارج ... انهن يقلسن

انهن لا يردن بأى حال العودة الى هذه البلاد المتوحشة التى يقتل فيها

الطلبة فى الشوارع ، وأنا اقول لهن انهن على حق ، وأنه ينبغى لهن

الاقامة فى باريس بصفة دائمة ...

لم يتمالك مستر كارميكل ان استدار بمقعده نصف دورة وقد

أدرك أن الحديث اليومى المحرج قد بدأت حلقاته من جديد ، وقال

لها :

– لا موجب عندك للقلق ...
فقال منتحبة :

– بل بالعكس تماما ... أنا أول إنسانة كان يجب أن أحزم امتعتي وأرحل عن هذه البلدة ، حتى لو أدى الأمر الى فقدان هذه الأرض والأعمال التي كان ارتباطنا بها سببا لمصائبنا ... لا يامستر كارميكل ... لست أريد طشتا من ذهب لكى أبصق فيه الدم ...

حاول مستر كارميكل أن يواسيها ، فقال لها :
– لا بد لك من مواجهة مسؤولياتك ... لا يمكنك القاء ثروة من النافذة ...

فقالت الارملة :
– ان المال هو روث الشيطان ...
– لكنه في هذه الحالة هو أيضا ثمرة كفاح دون شيب جوزيه مونتييل وعمله الشاق ...

عضت الارملة أصابعها ، وردت قائلة :
– أنت تعرف أن هذا غير صحيح ... انها مال حرام ، وأن أول من كفر عنها بموته دون اعتراف كان جوزيه مونتييل ذاته ..
لم تكن هذه هي المرة الأولى التي قالت فيها هذا الكلام ... ولم تلبث أن هتفت وهي تشير الى العمدة الذي كان يمشى على الرصيف المواجه متأبطا ذراع رئيس السيرك :

– وأن اللدب في هذا يقع طبعاً على رأس هذا المجرم ... لكننى أنا الانسانية التى تحتل الوزر والتكفير عنه ...
تركها مستر كارميكل ... وعمد الى رزم البنكنوت المشدودة بأحزمة من مطاط فوضعها فى علبة من الكرتون ... ومن الباب المؤدى الى الحوش جعل ينادى الفلاحين اسما اسما حسب الحروف الابجدية ...

وفيما كان الرجال يتسلمون اجرهم الاسبوعى كانت الارملة مونتييل تسمعهم وهم يمرون دون أن ترد على تحياتهم ... لقد أصبحت تعيش وحيدة فى البيت الكبير الكئيب المؤلف من تسع حجرات ، والذي شهد موت « الام الكبرى » ، والذي اشتراه جوزيه مونتييل دون أن يتصور أن أرملة سيكتب عليها أن تعاني فيه الوحدة الى يوم مماتها ... وفى الليل عندما كانت تطوف بأرجاء الغرف الخالية لرش المبيد الحشرى ، كانت تقف امام صورة « الام الكبرى » متسائلة : « متى

يحين موتى ؟ » ... لكن هذه المناجاة التى كانت تسعدها مع الراحلين لم تكن الا لتزيدها بلبلة واضطرابا ...

وعندما جاوزت الساعة الحادية عشرة شاهدت الارملة مونتييل من خلال دموعها الاب انجيلو وهو يجتاز الميدان ... فنادته مرتين ، شاعرة بأنها تقدم على الخطوة الأخيرة بهذا النداء .. بيد ان الاب انجيلو لم يسمعها ... فقد طرق باب الارملة آسيز ، على الرصيف المواجه ، وفتح له الباب مواربا بطريقة مستترة لتمكينه من الدخول .

فى مدخل البيت الذى كان يموج بتفريد الطيور ، كانت الارملة آسيز مستلقية فوق مقعد قماش مستطيل ، ووجهها مغطى بمنديل غارق فى سائل مرطب ... وقد عرفت من أسلوب طرق الباب ان القادم هو الاب انجيلو ، بيد انها أطالت فترة الارتياح التى لا يستها فى تلك اللحظة الى ان سمعته يحييها ... ومالبثت ان كشفت عن وجهها ، الذى انهكه طول الارق ... قالت له :

- ارجو عفوك يا ابى ... لم اكن اتوقع حضورك مبكرا ... تجاهل الاب انجيلو حقيقة انها هى التى دعت له لتناول الفداء ، واعتذر فى شئ من الارتباك بأنه أصيب بصداغ هذا الصباح وانه فضل ان يعبر الميدان قبل ان يشتد الحر ... فقالت الارملة :

- ليس لهذا أهمية ... كان قصدى اننى لم ارد لك ان تلقانى وانا فى حالة مضنية ...

أخرج القس من جيبه كتاب صلوات بدأ يتفقد جلده ، قائلا :
- ان أردت ، يمكنك ان تستريحى فترة أخرى اقرا فى خلالها .. فاعترضت الارملة قائلة :
- اننى اشعر الآن بتحسن ...

وسارت الى نهاية المدخل وهى مغمضة العينين ... وفى عودتها بسطت المنديل بعناية بالغة على ذراع المقعد ... وعندما جلست فى مواجهة الاب انجيلو ، بدت وكأنها صغرت أعواما ... قالت له دون أى تمهيد درامى :

- ابتاه .. أنا فى حاجة الى مساعدتك ... فوضع الاب انجيلو كتاب الصلاة فى جيبه ، قائلا :

- تحت أمرك ...
- المسألة خاصة بابنى روبرتو آسيز مرة أخرى ...
- ان روبرتو آسيز الذى وعد فى تلك المناسبة السالفة ان ينسى حكاية المصق الفاحش ، ثم ارتحل ، ما لبث ان عاد فجأة فى نفس الليلة ... ومنذ تلك اللحظة وحتى الفجر - عندما أضناه التهب - ظل جالسا فى ظلام الغرفة ، فى انتظار عشيق زوجته المزعوم ...
- لقد أنصت الاب انجيلو الى الارملة متحيرا ثم قال :
- ليس هناك أى أساس لهذا ...
- فردت الارملة قائلة :
- انت لا تعرف آل آسيز يا أبى ... انهم يحملون الجحيم فى تخيلاتهم ...
- فقال لها :
- ان زوجته ربىكا تعرف وجهة نظرى فى مسألة المصقات الفاحشة ... لكن اذا أردت ، بإمكانى أن اكلم روبرتو آسيز ايضا ...
- فقالت الارملة :
- كلا مطلقا ... ان هذا يزيد النار ضراما ... لكن من الناحية الاخرى ، اذا أمكنك أن تتكلم عن مسألة المصقات الفاحشة فى موعظه الاحد . فأنا واثقة ان روبرتو آسيز سيشعر بأن الواجب يقتضيه أن يفكر مليا ...
- فتح الاب انجيلو ذراعيه ، وهتف قائلا :
- مستحيل ... ان هذا يعطى المسألة أهمية ليست لها ...
- ليس هناك شئ أهم من تفادى وقوع جريمة ...
- هل تظنين ان المسألة قد تستفحل الى حد الحد ؟ ...
- فقالت الارملة :
- لا اظن هذا فقط ، بل أنا واثقة انه ليست عندى الوسائل التى تمنع وقوعها ...
- وبعد لحظة كانا جالسين الى المائدة ... وجاءت خادمة حافية القدمين تحمل الطعام ... فأخذ الاب انجيلو يأكل فى صمت ...
- وفى النهاية قال للأرملة :
- لا بأس ... عليك اذن ان تتأكدى من أن روبرتو آسيز لن يفوته حضور القداس يوم الاحد ...

فوعده الارملة آسيز بما طلب ...

امضى الدكتور جيرالدو وزوجته - التى لم تكن تنام وقت القيلولة - فترة بعد الظهر فى قراءة رواية للكاتب الانجليزى تشارلز ديكنز ... وكانا يجلسان فى الشرفة الداخلية ، هو فى الأرجوحة يستمع وقد شبك أصابعه خلف عنقه ، وهى ممسكة بالكتاب فى حجرها .. ولم ترفع رأسها حتى النهاية ، وحتى عندما فرغت ظلت والكتاب مفتوح فوق ركبتيها ، بينما راح زوجها يفتسل فوق الحوض ... وكان الحر ينذر بعاصفة ...

ثم ارتدى بدلة من الكتان الابيض بمساعدة زوجته ... وكان يمكن أن يظن من يراها أنها أخته الكبرى ، ليس فقط بسبب تفانيها فى اداء مطالبه ، بل كذلك لما يتجلى فى عينيها من هدوء فاتر يجعلها تبدو أكبر سنا ...

وقبل أن يبارح الدكتور جيرالدو البيت أطلعها على كشف زيارته الخارجية مرتبا حسب الدورة ، حتى تكون على علم عند وجود حالة طارئة ، ورائحه الى غرفة الانتظار حيث ادار قرص المواعيد ليعلن : سيعود الطبيب فى الساعة الخامسة ...

وكان الشارع يعج بالحر ... وسار الدكتور جيرالدو على امتداد الرصيف الظليل وفى نفسه احساس بنذير يقول : على الرغم من شدة الهواء ، فلن يسقط المطر هذا المساء ... وكان طنين ذباب الحصاد يضاعف من أثقال الوحدة فى الميناء النهري ، ولكن البقرة الميتة أبعدت من مكانها وسحبها التيار بعيدا ، تاركة وراءها آثار العفن ...

كان الدكتور جيرالدو قد حجز ساعة بعد ظهر هذا اليوم لدون ساباس ... وقد وجده فى الفراش منهوكا ، ملتفا بمنشفة من وسطه الى اعلى ...

وقال دون ساباس شاكيا وهو يدير جسده الضخم الى ناحية الباب :

- ياله من حر شنيع بادكتور ... اننى اخذت الحقنة بعد الغداء ...

فتح الدكتور جيرالدو حقيبته فوق خوان قرب النافذة .. وكان ذباب الحصاد يطن فى الحوش ، وحرارة البيت أشبه بحرارة

صوبة نباتية ... ولما أخذ الدكتور جيرالدو « عينة » من بول دون ساباس فى انبوبة اختار شعر المريض براحة ، وقال وهو يراقب عملية التحليل :

— احذر يا دكتور .. انا لا أريد أن أموت قبل أن أعرف كيف تنتهى هذه الرواية ...

— أية رواية ؟

— « القصصات الفاحشة » ...

وراح دون ساباس يراقبه حتى فرغ من تسخين الانبوبة على لهب مصباح الكحول ، ثم قال وهو يلقي بالعينة فى الحوش :

— النتيجة طيبة ...

وتفرس فيه مليا ، ثم قال :

— هل أنت مشغول أيضا بحكاية الملصقات هذه ؟..

فأجاب المريض :

— لست أنا ... ولكننى مثل اليابانى الذى يستمتع بفزع غيره

من الناس ...

انتقل الدكتور جيرالدو الى تجهيز الحقنة ، بينما مضى دون ساباس يقول :

— وبالإضافة الى هذا فانهم وضعوا لى ملصقا منذ يومين .. وهو

نفس الكلام الفارغ عن حكاية أولادى وحكاية الحمير ...

شد الدكتور جيرالدو على وريد دون ساباس بأنبوب مطاط ... وأخبر المريض على رواية حكاية الحمير باعتبار أن الطبيب لم يسمعها فراح يقول :

— هى صفقة حمير عقدتها منذ عشرين سنة ... وحدث أن

الحمير التى بعثها وجدت ميتة فى الصباح بعد يومين ، دون أن توجد عليها أية آثار للعنف ...

وقدم ذراعه المكتنز اللحم لكى يأخذ الطبيب « عينة » الدم ... وعندما فرغ وغطى الثقب بالقطن ثنى دون ساباس ذراعه قائلا :

— وهل تعرف ما الذى اختلقه الأهالى ؟...

هز الطبيب رأسه ، فقال دون ساباس .

— اشاعوا فى كل مكان اننى ذهبت الى حوش الحمير ليلا وأطلقت

النار عليها من داخل أدبارها ...

وضع الدكتور جيرالدو الانبوبة الزجاجية التى بها عينة الدم فى جيبه ، وقال :

.. هذه الحكاية تدل مظاهرها على انها حقيقة ...

فقال دون ساباس وقد جلس فى الفراش مثل صنم :

.. الثعابين كانت السبب ... وعلى أى حال فان من البلاهة

كتابة قصاصة فاحشة عن شىء يعرفه كل انسان ...
فقال الطبيب :

.. كان ذلك دائما هو الصفة اللازمة للملصقات الفاحشة ... انها

تقول مايعرفه كل الناس ، وهو مايكاد ينطبق على الحقيقة ..

انتابت دون ساباس لحظة شرود ... ومالبت أن غمغم وهو
يجفف العرق عن عينيه الزائفتين :

.. ان الواقع هو أنه لاتوجد ثروة واحدة فى هذه البلاد ليس
وراءها حمير ميتة ...

فى هذه اللحظة كان الطبيب يفسل يديه فوق الحوض .. فمالبت
أن تطلع الى المريض من خلال المرأة وقال له :

.. ان اعتقادى الدائم يادون ساباس هو ان الصفاقة هى فضيلتك
الوحيدة ...

اثار هذا الوصف حماس المريض ... والواقع ان غمزات الطبيب
اذكت فيه فورة شباب مفاجئة ، حتى قال :

.. هذه الصفة ، وشىء آخر هو : شدة حيويتى ... ولهذا
فانى ساموت مستهزئا بحكاية الملصقات الفاحشة ... انها تقول
ان اولادى يستجيبون لاغراءات كل صبية تتفتح براعمها فى هذه
الغابات ... وانا اقول انهم أبناء أبيهم ، ومن شابه أباه فما
ظلم ! ...

وقبل أن يستأذن الطبيب فى الانصراف ، كان عليه ان يستمع
الى المريض وهو يهتف بقوله :

.. الشباب السعيد ، له الاوقات السعيدة ، مادامت الصبية فى
سن المراهقة لاتكلف اكثر من ثمن عجلة ...
فقال له الطبيب :

.. ان هذه الذكريات المستهتره ترفع نسبة السكر فى دمك ...
ففتح دون ساباس فمه ليرد قائلا :

- بالعكس ... انها افضل من حقن الانسولين اللعينة التى
تعطيها لى ...

عندما خرج الطبيب الى الشارع كان شىء آخر يضايقه غير لغو
مریضة الشانن : وهو الملصقات القاذعة ... فقد ظلت الشائعات
تتواتر عنها مدى أيام فى مكتبه ... وبعد زيارته لدون ساباس عصر
هذا اليوم ، تحقق عنده أنه لم يسمع أحاديث عن غيرها مدى
أسبوع ...

فقد قام بزيارات أخرى خلال الساعة التالية ، وفى كل زيارة لم
يكن يسمع غير حديث الملصقات الفاحشة ... وكان يستمع الى
الروايات دون أن يعقب ، مكتفيا بابتسامة يسيرة ظاهرها عدم
الاكتراث ، وان كان فى الحقيقة يحاول أن يصل الى نتيجة ...
وكان فى طريق العودة الى مكتبه عندما التقى بالاب انجيلو خارجا من
دار الارملة مونتييل ، فخلصه من تأملاته ...

قال له الاب انجيلو :

- كيف حال مرضاك يادكتور ؟..
فأجاب الطبيب :

- ان مرضاى على مايرام .. وماذا عن مرضاك أنت ؟..
عض الاب انجيلو على شفثيه ... وما لبث ان أمسك بذراع
الطبيب وأخذا يعمران الميدان ، فقال القس :

- ولماذا تسأل ؟..
فأجاب الطبيب :

- لا أدرى ... سمعت أن وباء خطيرا قد تفشى بين روادك ...
تحاشى الاب انجيلو الرد المباشر ، مما استشف منه الطبيب أنه
فعل هذا عن عمد ، وذلك عندما قال :

- اننى عائد توا من عند الارملة مونتييل ... ان اعصاب هذه
المرأة المنكودة قد أضنتها ...
فقال الطبيب شخصا :

- ربما كانت العلة فى ضميرها ...

- بل هو الاستحواذ المسيطر عليها : الموت ...
وعلى الرغم من أنهما يقيمان فى مكانين متعارضين ، فان الاب
انجيلو صحبه الى مكتبه ... فعاد الطبيب الى التقاط الخيط ،
قائلا .

- أقول الجد ابها الاب : مارأيك فى حكاية المصصقات
الفاحشة ؟ ...

فأجاب القس :

- أنا لا أفكر فيها .. لكن اذا حملتنى على ذلك ، قلت لك انها
من عمل الحسد فى بلدة مثالية ناجحة ...
فرد الدكتور جيرالدو قائلا :

- اننا معشر الاطماء لا نشخص على هذا النحو ، حتى وان كان
فى العصور الوسطى ...

وتوقفا أمام المكتب ... وبعد أن روح الاب انجيلو بالمروحة وانيا
اكدرأيه الذى أسلفه فى هذا اليوم ، من أن الانسان يجب الا يعطى
الاشياء الاهمية التى ليست لها .. أما الدكتور جيرالدو فقد شعر
فى دخيلته بياس مستتر ، حتى قال :

- كيف تعرف يا أبى انه لبس هناك شىء حقيقى فيما تقوله
« المصصقات الفاحشة » ؟ ...

- لو كان هذا لعرفته من سياق الاعترافات ...
فتطلع اليه الطبيب ببرود قائلا :

- والامر أخطر اذا كنت لا تعرف من خلال الاعترافات ...

وكان القس قد لاحظ عصر هذا اليوم أن الناس فى البيوت
الفقيرة كانوا يتحدثون أيضا عن « المصصقات الفاحشة » ، لكن
بطريقة مختلفة ، بل وحتى بمرح نظيف ... وقد تناول طعامه بعد
حضور صلوات المساء وهو يشعر بشوكة ألم فى رأسه ، وان كان
عزا هذا الى طعام الفداء الدسم الذى تناوله عند الارملة مونتيلا
... وبعد ذلك تصفح جدول التوصيف الخلقى للافلام التى تعرضها
دار السينما ، ولأول مرة فى حياته شعر بلون خفى من الفخر وهو
يدق دقات منتصف الليلة المؤذنة بحظر عرض هذا الفيلم السينمائى
... وفى النهاية وضع كرسيًا صغيرًا قرب باب الشارع وهو يشعر
بأن رأسه يكاد ينفجر ألما ، وتأهب لكي يتحقق علانية من الذين
يرتادون دار السينما مخالفين نواهيهِ ومواعظه ...

دخل العمدة الى دار السينما ...

جلس فى ركن أمامى ودخن سيجارتين قبل أن يبدأ العرض ..
وكانت لثته قد أصبحت طبيعية تمامًا ، بيد أن جسده ما زال يعانى

من ذكرى الليالى الماضية ومن الافراط فى تعاطى المسكنات والتدخين ...

كانت دار السينما فناء يحوطه سور من الاسمنت ، تغطيه الواح من الزنك الى منتصفه ... ولم يشعر العمدة بالراحة الا حين اطفئت الانوار ... وعندما سكنت الموسيقى الزاغبة من خلال الميكروفون اعقبها صوت تموج المولد الكهربائى القائم فى كشك خشبى مجاور لجهاز العرض ...

وقبل بدء الفيلم عرضت بعض اللوحات الاعلانية .. واختلطت فى الظلام همسات وافدة متوالية ، وخطوات مرتبكة ، وضحكات مكتومة ... وخبل للعمدة اول الامر ان حركات الدخول هذه المقترنة بالتكتم هى وليدة التحايل على الخطر الذى فرضه الاب انجيلو على الافلام الممنوعة ...

ومهما يكن فقد تنبه الى مرور مدير السينما عن كذب ، ربما بسبب رائحة الكولونيا المنبعثة منه ... وسرعان ما همس العمدة قائلا وهو يجذبه من ذراعه :

- يا لص ! .. لابد ان تدفع ضريبة خاصة ..

ضحك المدير ضحكة خافتة ، وجلس فى المقعد المجاور قائلا :

- هذا فيلم جيد ...

فقال العمدة :

- بودى ان تكون الافلام كلها خارجة ... فليس ادعى الى الملل من الافلام الوعظية ..

فى الاعوام الماضية ، لم يكن رواد السينما يأخذون مأخذ الجد هذا الخطر الذى كان الاب انجيلو يفرضه بقرع الاجراس ... ولكنه كان يعتمد فى قداس كل احد الى التنديد بهذه المخالفة وطرده النساء المخالفات من حرم الكنيسة .

وفى هذا قال مدير السينما للعمدة :

- ان الباب الخلفى للسينما كان هو منقذى ...

وبدا العمدة يتابع نشرة الاخبار القديمة ... وفى خلال ذلك راح يتكلم ، فقال معقبا على كلام المدير :

هذا هو الشأن فى كل شئ ... ان القس يابى اعطاء العشاء الربانى للنساء ذوات الاكمام القصيرة ، فيمضين فى ارتداء الاكمام

القصيرة ، لكنهن يضعن اكماما طويلة زائفة قبل الذهاب الى
القداس ...

وبعد نشرة الاخبار عرض برنامج الاسبوع التالى ، فجعل الاثنان
يتابعان العرض فى صمت ... وفى النهاية مال مدير السينما نحو
العمدة ، وهمس قائلا :

- يا حضرة الملازم ... اشتر هذه البلية منى ...

لم يرفع العمدة نظره عن الشاشة ، وقال :

- انها ليست عملية ناجحة ...

فقال مدير السينما :

- بالنسبة لى لا ... لكنها من الناحية الاخرى ، يمكن أن تكون

منجم ذهب بالنسبة لك ... من الواضح أن القس لن يواجهك بحكاية
أجراس الخطر ...

فكر العمدة فترة قبل أن يرد :

- هى فكرة طيبة فعلا ..

بيد أنه لم يقل شيئا قاطعا ... فقد مد قدميه على الدكة التى
امامه واستغرق فى مشاهدة دراما معقدة بدا له ، حسب تقديره ،
انها لا تساوى حتى أربعة اجراس من اجراس الخطر ...

وعندما انصرف من دار السينما عرج على البار حيث كانوا يلعبون
الورق ... كان الجو حارا والراديو يقدف موسيقى صاخبة .. وبعد
أن شرب زجاجة صودا توجه للنوم ...

سار على امتداد ضفة النهر خلى البال ، متصورا فيضان النهر
فى الظلام ... وما أن بلغ باب غرفة النوم حتى توقف فجأة ...
وسرعان ماوثب الى الخلف وهو يجذب المسدس من جرابه ..
وقال بصوت مشدود :

- اظهر نفسك لى اراك ، والا نسفت رأسك نسفا !..

فانبعث من خلال الظلام صوت حلو جدا يقول :

- لا تكن عصبيا هكذا يا حضرة الملازم ..

فوقف مصوبا مسدسه الى أن خرج الشخص المختفى فى الظلام
الى النور ...

كان كاساندراس ... لاعبة السيرك ...

فقال العمدة :

- لقد نجوت من الموت بفارق شعرة ...

وادخلها غرفة نومه ... فجعلت كاساندرنا تتكلم فترة طويلة ،
باسلوب لولبى ... ثم جلست فوق الارجوحة ، وفى اثناء كلامها
خلعت حذاءها وركزت نظراتها على ايهامى قدميها المصبوغين بطلاء
وردى زاه ...

أما هو فقد جلس فى مواجهتها مروحا بكابه ، منصتا اليها باهتمام
ظاهرى ... ثم استأنف التدخين .. وعندما دقت الثانية عشرة ،
استلقت بوجهها فى الارجوحة ، ومدت ذراعها المزدان بأساور ذات
رنين قوى وقرصت انفه ... قائلة :

- الوقت تأخر يابنى ... اطفئ النور ...
ابتسم العمدة ، وقال :

- ايس من أجل هذا سألت عنك ...
لم تفهم .. فقال العمدة :
- هل تعرفين قراءة الطالع ؟ ..

عادت كاساندرنا الى الجلوس فى الارجوحة ، قائلة :
- طبعاً ...

وعندما فهمت ، لبست حذاءها ... ثم قالت :
- لكننى لم احضر أوراق كشف الطالع ...

فابتسم العمدة ، وأخرج من قاع حقيبة ملابسه مجموعة أوراق
أحب بالية ... فراحت تفحص كل ورقة أماما وخلفا بعناية جادة ،
وقالت :

- الأوراق التى عندى أحسن ... لكن على أى حال ، المهم هو
الرسالة التى تخرج من الأوراق ...

وجذب العمدة منضدة صغيرة وجلس فى مواجهتها ، بينما بسطت
كاساندرنا أوراق على المنضدة ... ثم سألته :

- هل تريد الحب ، أم العمل ؟ ..
فجفف العمدة العرق عن يديه قائلا :
- العمل ...

الفصل السادس

احتفى حمار شارد من المطر تحت افريز سقف بيت الابرشية ،
وظل ملازما هذا الملاذ طول الليل ، رافسا بحوافره حائط غرفة
النوم ...

وبعد ان افلح الاب انجيلو فى النوم عند الفجر ، استيقظ
اخيرا وهو مكدود مضنى ...

ثم ارتدى ملابسه لترتيل القداس ، وسمع ترينيداد وهى تجمع
حصيلة فئرانها الميتة ، بينما كانت بعض النساء يتسللن الى الكنيسة
لحضور القداس ...

كان القس منحرف المزاج هذا اليوم ، وعندما توجه لتناول افطاره
اعترضت ترينيداد طريقه وهى متهلة الاسارير . قائلة وهى تهـز
الفئران داخل العلبة :

— ستة فئران أخرى اليوم ! ..

فقال الاب انجيلو محاولا التغلب على مشاعره :

رائع ! ... بهذا المعدل سيمكننا ان نكتشف جحورها ونستأصلها
تماما ...

فقالت ترينيداد انها تمكنت من استكشاف هذه الجحور ...
وشرحت له كيف حددت مواضع الجحور فى مختلف أنحاء الكنيسة
وكيف سدت مسافدها بالاسفلت ... وفى هذا الصباح وجدت فأرا
يأثسا يضرب الحائط باستماتة بعد ان ظل طول الليل يفتش عن باب
ماواه ...

وذهبت ترينيداد لالقاء الفئران الميتة فى المرحاض متمهلة مبسوطة
بينما دلف الاب انجيلو الى مكتبه للافطار ، فرفع مفرش المائدة الصغير
الذى كان يجد تحته كل صباح ، وكأنما بسحر ساحر ، طعام
الافطار الذى اعتادت الارملة أسيز ارساله ...

وعندما عادت ترينيداد قالت له :

— سيبت ان اقول اننى لم اتمكن من شراء الزرنينخ .. ان دون لالو
موسكيت قال انه لا يمكن بيع الزرنينخ الا بموجب تذكرة طبيب ..
فقال الاب انجيلو :

- لا لزوم لهذا ... ان الفئران سوف تختنق حتى الموت داخل جحورها المسدودة ...

وشرع يتناول الطعام والقهوة بينما كانت ترينيداد تفتح النافذة ،
اذ قالت :

- من الافضل دائما ان نكون على استعداد لثلا تعود الفئران ..
فجأة توقف الاب انجيلو عن صب القهوة ، وتطلع الى ترينيداد
قائلا :

- اراك تشغلين نفسك كثيرا بهذه المسألة !...

لم يلاحظ الاب انجيلو وقتئذ أو قبل ذلك اية دلالة على القلق
في حاجبي ترينيداد المتضامنين المقطبين .. بيد أنه لم يستطع الآن
أن يتغلب على الرعدة اليسيرة التي عرت أصابعه وهو يقلب السكر
في قدح القهوة ... واخيرا قال لها :

- منذ متى لم تتقدمي بالاعتراف ؟..

فأجابت ترينيداد :

- منذ يوم الجمعة الماضي ...

اغمض الاب انجيلو عينيه ... وفجأة توقف عن قلب القهوة ،
ووضع المعلقة الصغيرة ، وقبض على ذراع ترينيداد قائلا :

- اركعي ...

في قلق وضعت ترينيداد العلبه على الارض وركعت امامه ، فقال
لها وقد عالج ان يكسب نبراته حنوه المألوف عند تلقى الاعتراف :

.. صلى واستغفرى ...

أطبقت ترينيداد قبضتها على صدرها وانشأت تبتهل بمفهمة غير
مفهومة ، الى أن وضع القس يده على كتفها قائلا :

.. لا بأس ...

فقالت ترينيداد : اننى كذبت كثيرا ...

- وماذا غير ذلك ؟..

.. وخالطتني افكار سيئة ...

كان ذلك هو اسلوب اعترافها ... كانت دائما تعدد نفس الذنوب
بطريقة معمة وبنفس الترتيب ... اما هذه المرة فلم يستطع
الاب انجيلو أن يقاوم رغبته فى النفوذ الى أعماق ابعاد ، فقال له :

- اذكرى أمثلة ...

فقالت ترينيداد مترددة :

- لا اعرف ... احيانا تراود الناس افكار سيئة ...
فنهض الاب انجيلو قائلا :
- هل فكرت مرة في التخلص من حياتك ؟ ..
يا الهى ...
- هتفت ترينيداد هكذا دون ان ترفع رأسها وهى تضرب رجل
المنضدة بعقد أصابعها ... ومالبثت ان أجابت :
- لا يا ابتاه ! ..
- جعلها الاب انجيلو ترفع رأسها ، فلاحظ وقد انتابه لون من الكآبة
ان عينى الفتاة أخذتا تمتلئ بالدمع ... فقال لها :
- هل تقصدين ان الزرنيخ كانا مطلوبا حقيقة للفئران ؟ ..
نعم يا ابتاه ...
- اذن ، ما الذى يبكيك ؟ ..
- حاولت ترينيداد ان تطرق برأسها ، بيد أنه أمسك بذقنها بثبات
... واذا دموعها تتفجر ، حتى لقد شعر بها الاب انجيلو تجرى بين
أصابعه مثل خل حار ... فقال لها :
- حاولى أن تهدئي نفسك ... انك لم تكلمى بعد اعترافك ...
وتركها تجهش ببكاء صامت . وعندما شعر أنها قد توقفت عن
البكاء ، قال لها برقة ؟
- لا بأس .. والآن قولى لى ..
- تمنخت ترينيداد فى طرف جليابها ، وابتلعت لعابها الكثيف الذى
خالطته الدموع المالحة ... وعندما تماكنت راحت تقول بصوت
ثابت :
- ان عمى امبروزيو يطاردنى ...
كيف ذلك ؟ ..
- فقال ترينيداد :
- انه يريدنى ان ادعه يمضى ليلة فى فراشى ...
استمرى ...
- فقال ترينيداد :
- هذا كل شيء ... قسما بالله هذا كل شيء ...
فنهاها القس قائلا :
- لا تحلفى ...
- ثم سألها بصوته الهادى الذى كان ديدنه وهو يتلقى الاعترافات :

- أخبريني بشيء واحد ... مع من تنامين ؟...
- فأجابت ترينيداد :
- مع أمي والباقيين .. سبعة في نفس الغرفة ..
- وابن ينام هو ؟...
- فأجابت ترينيداد :
- في الغرفة الأخرى ، مع الرجال ...
- وهل سبق له أن ذهب الى غرفتك ؟...
- نفت ترينيداد بهزة من رأسها ... فقال الاب انجيلو باصرار :
- قولي لي الحقيقة ... تكلمي .. لاتخافي .. ألم يحاول مرة
- أن يصل الى فراشك ؟.
- مرة ...
- كيف حدث هذا ؟ ..
- فأجابت ترينيداد :
- لا اعرف ... عندما استيقظت شعرت به في الداخل تحت
- الناموسية ، ساكنا وهادئا ، وقال لي أنه لا يريد أن يفعل أى شيء ،
- وأنه فقط يريد أن ينام معي ، لأنه يخاف من الديوك ..
- أية ديوك ؟...
- فأجابت ترينيداد :
- لا اعرف ... هذا ما قاله لي ..
- وماذا قلت له ؟...
- ... انه اذا لم يذهب فساأصرخ واوقف الجميع ..
- وماذا فعل ؟...
- استيقظت كاستولا وسألتني ماذا جرى ، فقلت لا شيء ، واننى
- لا بد كنت أحلم ... وعند ذلك بقي ساكنا جدا ، مثل رجل ميت ،
- وبعدها لم اكده الاظهله عندما خرج من تحت الناموسية ...
- فقال القس بلهجة ايجابية :
- وكان بملابسه ...
- فأجابت ترينيداد :
- كان كحالتة عندما ينام .. بالبنتلون فقط ...
- ألم يحاول أن يلمسك ؟
- لا يا أبى ..
- قولي لي الحقيقة ..

فأجابت ترينيداد باصرار :
- هى الحقيقة يا أبى ... أقسم لك ..
رفع الاب انجيلو رأسها من اطرافته ونظر فى عينيها المبللتين
وتوقدهما المحزون ... ثم قال لها :
- لماذا أخفيت هذا عنى ؟ ..
- كنت مفزوعة ...
- مفزوعة من أى شئ ؟ ..
- لا أعرف يا أبى ..
وضع يده على كتفها ، ووجه اليها نصيحة مستفيضة .. فأومأت
برأسها مستجيبة ... وفى النهاية صليا معا بصوت خافت ، دون أن
يفارقه الأحساس بأن الكارثة الشاملة آتية لأريب فيها ..

دفع العمدة باب بيت القاضى أركاديو ، صائحا يناديه .. فظهرت
زوجته عند باب غرفة النو وهى تجفف يديها فى ملابسها ،
وقالت :

- انه لم يأت الى البيت منذ ليلتين ...
فقال العمدة :

- يا للشيطان ! .. أمس لم يذهب الى مكتبه ... اننى أبحث
عنه فى كل مكان لامر عاجل ، ولم أجد أحدا يدلنى على مكانه ...
أليست عندك أية فكرة أين يوجد ؟ ..
- لابد انه عند المومسات ...

انصرف العمدة دون أن يفلق الباب ... وقصد الى البار ، حيث
كانت الموسيقى تهز أرجاء المكان ، واتجه مباشرة الى الغرفة الخلفية
مناديا القاضى أركاديو بأعلى صوته ... فرد عليه دون روك صاحب
البار من حيث كان يصب الروم من دنان صائحا :

- انه ليس هنا يا حضرة الملازم ...

فانتقل العمدة الى خلف الحاجز حيث كان عدد من الرجال يلعبون
الورق ، فلم يكن بينهم من شاهد القاضى أركاديو ... فقال العمدة :
- لعنة الله على هذا ! .. كل واحد فى هذه البلدة يعرف مايفعله
أى واحد غيره ، والآن عندما احتاج الى القاضى ، لا أحد يعرف
أين هو ولا ماذا يفعل ! ..

فقال دون روك :

- أسأل الشخص الذى يضع الملصقات الفاحشة !..
فرد العمدة قائلا :

- لا « تفرنى » بموضوع تلك القصاصات !..
ولم يوجد القاضى أركاديو فى مكتبه أيضا .. وكانت الساعة
وقتها التاسعة ، ولكن سكرتير المحكمة كان مستغرقا فى النعاس
عند المدخل ..

وولى العمدة وجهه شطر ثكنات البوليس ، حيث أمر ثلاثة رجال
بارتداء ملابسهم والبحث عن القاضى أركاديو فى صالة الرقص وفى
بيوت « البغاء السرى » الثلاثة المعروفة للجميع ... وبعد هذا كله
خرج الى الشارع دون وجهة معينة ...

وأخيرا ، فى دكان الحلاق ، عثر على القاضى أركاديو جالسا فى
كرسى الحلاقة منفرج الساقين وحول وجهه منشفة حارة ... فصاح
العمدة :

- اللعنة !يها القاضى !.. اننى أبحث عنك منذ يومين ؟..
رفع الحلاق المنشفة ، فرأى العمدة عينين ساهمتين وذقنا
تظللها لحية ثلاثة أيام .. فقال له :

- أنت تختفى بينما زوجتك فى حالة وضع ...
وثب القاضى أركاديو من الكرسى منتفضا ... فضحك العمدة
ضحكة صاخبة ورده الى الكرسى قائلا :

- لا تكن ابله ... اننى كنت أبحث عنك لسبب آخر ..
فاسترخى القاضى أركاديو مرة أخرى وأغمض عينيه ، بينما قال
له العمدة :

- أتمم الحلاقة وتعال الى المكتب ... سانتظر هنا ...
وجلس على درجة وهو يقول :

- أين كنت بحق جهنم ؟..
فأجاب القاضى :

- فى جولة ...

لم يكن العمدة يكن مودة الحلاق ... وفيما سلف لم تفته رؤية
الرقعة المسمرة على الحائط بهذه الكلمات : « ممنوع الكلام فى
انسياسة » ، ولكنه لم يلق بالا اليها .. أما فى هذه المناسبة فقد
نادى الحلاق قائلا :

- جوارد يولا ...
 فمسح الحلاق الموسيقى في بنطلونه ووقف ينتظر ، قائلا :
 - ماذا يا حضرة الملازم ؟..
 فسأله العمدة مشيرا الى الرقعة المعلقة :
 - من اعطاك السلطة لوضع هذه اللافتة ؟..
 فأجاب الحلاق :
 - تجارب الايام ...
 فأخذ العمدة مقعدا صغيرا وقف عليه ونزع اللافتة قائلا :
 - الجهة الوحيدة التى لها الحق هنا في حظر أى شئ هى الحكومة
 ... اننا نعيش في ظل الديمقراطية ...
 عاد الحلاق الى عمله ، بينما استطرد العمدة قائلا :
 - لا احد يمكنه منع الناس من التعبير عن افكارهم ...
 ومزق الرقعة والقى بها في سلة النفاية وذهب الى الحوض لغسل
 يديه ...
 اما القاضى اركاديو فقال للحلاق مؤنبا :
 - هكذا ترى ماذا يحدث لك بسبب غياوتك ...
 ونظر العمدة الى الحلاف من خلال المرأة ، فوجده منهمكا في عمله
 ... على أنه لم يرفع نظره عنه وهو يجفف يديه ، وقال :
 - ان الفرق بين ما قبل والآن ، هو أنه فيما قبل ، كان السياسيون
 يعطون الاوامر ، أما الان فان الحكومة هى التى تأمر ...
 فقال القاضى اركاديو وقد اكتسى وجهه كله برغوة الصابون :
 - هل سمعت يا جوارديولا ؟..
 فأجاب الحلاق : بالطبع ...
 وعند انصرافهما دفع العمدة القاضى اركاديو في اتجاه المكتب ...
 وبدا تحت استمرار الرذاذ الذى لا ينقطع كأن الشوارع مكسوة
 بصابون آخر ... وقال العمدة :
 - كان من رأى دائما أن دكان الحلاق وكر للمتأمرين ...
 فقال القاضى اركاديو :
 - انهم يتكلمون ... لكن المسألة لا تتجاوز هذا الحد ...
 فرد العمدة قائلا : وهذا بالضبط ما يجعلنى متشككا ... انهم
 يعملون متخفين تحت هذا الستار الخادع ..
 فقال القاضى : على مدار تاريخ البشرية كلها ، لم يوجد قط

حلاف واحد كان متآمرا ... ومن الناحية الاخرى لم يوجد خياط واحد لم يكن من المتآمرين ...

ولم يترك العمدة القاضي اركاديو الا بعد ان اجلسه في كرسيه المتحرك ... وجاء السكرتير الى المكتب وهو يتشاءب ويديه ورقة مكتوبة بالآلة الكاتبة ... فقال العمدة :

- هذا هو الاسلوب ... لنبدأ العمل

ودفع « الكاب » الى الخلف واخذ الورقة المكتوبة قائلا :
- ما هذه ...

فأجاب السكرتير : انها للقاضي ... هي بيان بأسماء الاشخاص الذين لم تعلق على ابوابهم قصاصات فاحشة ...

نظر العمدة الى القاضي وقد لاحت عليه علائم الحيرة ، وهتف :
- انت ايضا مشغول بهذه المشكلة ؟ ...
فقال القاضي بلهجة الاعتذار :

- انها مثل قراءة الروايات البوليسية ...
قرا العمدة الورقة ، بينما تولى السكرتير الشرح قائلا :
- انها معلومات مفيدة .. لابد ان يكون مؤلف الملصقات واحدا من هذه الاسماء ... اليس هذا منطقيا ؟ ...

انتزع القاضي اركاديو الورقة من العمدة قائلا له :

- ان صاحبنا هذا مخرف كبير ..
ثم استطرد موجهها كلامه الى السكرتير .
- لو اننى كنت اعلق الملصقات الفاحشة ، فان اول باب اعلق عليه ملصقا فيها هو بابى ، لكى اتخلص من الشبهات فى امرى ...
الا ترى هذا يا حضرة الملازم ؟ ...

فأجاب العمدة : هي مشكلة الناس ، وهم ادرى بدخائلها ...
وليس من شأننا ان نجهد انفسنا بشأنها ..

فمزق القاضي اركاديو الورقة وطوح بها فى الحوش قائلا :
- بالطبع ...

وقبل ان يسمع العمدة هذا الرد كان قد نفى هذا الحادث من ذهنه ... ومالبت ان بسط راحتي يديه فوق المكتب قائلا :

- لا بأس ... ان المشكلة التى اريد منك بحثها فى كتبك القانونية هي هذه : لقد حدث بسبب الفيضان ان الناس فى الجزء الواطىء

من البلدة نقلوا بيوتهم الى الارض القائمة خلف المدافن ، وهى ملكى
... فما الذى افعله فى هذه الحالة ؟..

فابتسم القاضى اركاديو قائلا :

— لم تكن مضطرين للمجئ الى المكتب بسبب هذه المسألة ...
وانهنا أبسط من البساطة ... ان حكومة البلدة تمنح الارض
للمستوطنين وتدفع التعويض الملائم للشخص الذى يثبت ملكيته
نها ...

فقال العمدة : عندى الوثائق المثبتة للملكية ...

— اذن فليس هناك اكثر من اختيار بعض الخبراء لتثمين الارض
... وحكومة البلدة هى التى تدفع ..

— ومن يختارهم ؟..

— يمكنك أنت اختيارهم ...

سار العمدة الى الباب وهو يعدل حامل المسدس .. وعندما راقبه
القاضى وهو يتأهب للخروج ، بدا له أن الحياة ليست سوى سلسلة
متعاقبة من الفرص من أجل البقاء والعيش ... وقال باسم :

— لا سبب يدعو الى العصبية بسبب مسألة بسيطة مشل
هذه ...

فقال العمدة جادا : أنا لست عصبيا ... ولكن هذا لا يمنع من
كونها مشكلة ...

فدخل السكرتير قائلا : طبعاً عليك أولاً تعيين وكيل لك ...

فالتفت العمدة الى القاضى قائلا : هل هذا صحيح ؟..

فأجاب القاضى : فى حالة الطوارئ هذه ، لاليس هذا محتما ...
ولكن موقفك سيكون بالطبع ادعى الى الوضوح اذا تولى وكيل لك
مباشرة المسألة ، بعد تزويده بالوثائق التى تثبت انك المالك للأراضى
محل النزاع ...

فقال العمدة . اذن علينا تعيين هذا الوكيل ...

نقل بنيامين البقال قدمه من فوق صندوق الصبى ماسح الاحذية
دون أن يرفع نظره عن طيور الباز المتقاتلة التى كانت تتزاحم على
بعض الاحشاء الملقاة فى الشارع ... ولم يلبث الصبى الجالس عند
قدميه أن غمس « فردة » الحذاء الاخرى بأوكسيد الزنك ثم نقر على
الصندوق مرة ثانية لتغيير الفردة الاخرى .

ان بنيامين الذى كان فى سالف الايام يعيش من كتابة العسراىض
لم يكن بحاجة الى استعجال أى شىء .. والواقع ان عجلة الزمن
الوئيدة قد تركت آثارها فى دكانه ، ذلك الدكان الذى كان يبتلع
اولا نأول دخله الضئيل ، الى ان استحال مخزونه فى النهاية الى
سفينة كيروسين وحزمة من الشمع ...

وعندما عاد بنيامين الى داخل دكانه الكاسف ذى الارفف الخاوية
لبس سترته ووضع على راسه قبعة من القش واجتاز الشارع محتما
من المطر بمظلته ، ثم نقر على نافذة بيت مواجه فى الشارع ...
فظهرت لدى النافذة المواربة فتاة فاحمة الشعر شديدة شحوب
البشرة ... فقال :

— صباح الخير يا مينا ... الم تتفدى بعد ؟ ..
فردت الفتاة بالنفى وفتحت النافذة عن آخرها .. كانت جالسة
أمام سلة كبيرة تصنع ازهارا صناعية وعن كثب منها فونوغراف
يعزف اسطوانة ... فقال لها :

— هل تعملين معروفا وتراقبين الدكان الى ان أرجع ؟ ..
— هل تتغيب طويلا ؟ ..
— أنا ذاهب الى طبيب الاسنان ... سأرجع بعد نصف ساعة ..
فقلت مينا : جميل ... ان المرأة الضريرة لا تريدنى ان اتسكع
النافذة .

وسار بنيامين متجها الى دار طبيب الاسنان ، الذى ابتدره قائلا
وهو يفتح الباب :

— يبدو لى من وجهة نظرى ، ان حساسية الحرباء هى فى
عينها ..

فقال بنيامين : هذا جائز .. لكن ما علاقة ذلك بأى موضوع ؟ .
فقال الطبيب : فقط سمعت فى الراديو ان الحرباء العمياء
لا تغير لونها ...

ومهما يكن فقد وضع بنيامين مظلته فى ركن وعلق سترته وقبعته
وجلس فى الكرسي ، بينما كان الطبيب يخلط عجينة وردية اللون فى
هاون صغير ... فقال بنيامين :

— ما أكثر الذى يقولون ...

— عن الحرباءات ؟ ..

— عن كل انسان ...

اقترب طبيب الاسنان من الكرسي بالعجينة المجهزة لآخذ مقاس السن ... فأخرج بنيامين أسنانه الصناعية ولفها في منديل ووضعها فوق الرف الزجاجي بجانب الكرسي ... وبعد أن وضع الطبيب العجينة في الفراغ المطلوب في اللثة ، جعله يقفل فمه ... ثم قال له وهو يتفرس في عينيه :

- هذا هو الحال ... أما أنا فأننى جبان ...
حاول بنيامين أن يجد كلاما مناسبا يعقب به ، بيد أن الطبيب أبقى فمه مقفلا ، فرد بنيامين من داخل فمه :
- لا ... لبس هذا هو الحال ...

كان بنيامين يعرف ، مثل كل انسان آخر ، أن طبيب الاسنان كان الشخص الوحيد المحكوم عليه بالموت الذى لم يهجر بيته ... انهم خرقوا الجدران بالرصاص ، وأمهلوه أربعاً وعشرين ساعة لمفادرة البلدة ، لكنهم لم يفلحوا في تحطيم ارادته ... فقد نقل مكتبه الى غرفة داخلية ، واستمر يعمل والمسدس فى متناول يده دون أن يفقد اعصابه ، الى أن مضت شهور عهد الارهاب الطوال ...

ومهما يكن فقد ظل الطبيب مطبقاً فم بنيامين الى أن جفت العجينة فجذب القلب الصغير ... وهنا أزاح بنيامين عن صدره ما كان يثقل عليه ، فقال :

- لم أكن أشير الى هذا ... وانما كنت أشير الى حكاية اللصقات الفاحشة ...

فقال الاخصائى : آه .. انت اذن من المشغولين بهذه الحكاية ايضا ؟ ...

فقال بنيامين : انها ظاهرة للانحلال الاجتماعى ...
ورد الاسنان الصناعية الى فمه وبدأ فى ارتداء سترته ... فقال الطبيب بغير اكتراث :

- انها ظاهرة تدل على أن كل شيء سيعرف عاجلاً أو آجلاً ..
ثم نظر الى السماء الغائمة من خلال النافذة وأضاف :
- اذا أردت فيمكنك الانتظار الى أن يتوقف المطر ...
فعلق بنيامين مظنته على ذراعه قائلاً :
- الدكان بلا أحد فيه ...

ولوح بقبعته مسلماً ، ثم قال وهو المدى الباب :

- وعليك أن تنزع هذه الفكرة من رأسك يا أوريليو ... لا حق لاحد أن يظن أنك جبان لأنك خلعت ضرسا للعمدة ...
فقال الطبيب :

- في هذه الحالة ، انتظر لحظة ..
وتقدم الى الباب وأعطى بنيامين ورقة مطوية ، قائلا :
- اقراها ومررها علي من حولك ...
لم يكن بنيامين بحاجة الى فتح الورقة لكي يعرف ما بها ... وانما نظر الى الطبيب بفهم مفتوح قائلا :
- من جديد ؟ ..
فأوما طبيب الاسنان برأسه ايجابا ، وبقي لدى الباب الى أن ابتعد بنيامين ...

وعند الساعة الثانية عشرة نادته زوجته لتناول الغداء ... كانت انجيلا ابنته البالغة من العمر عشرين عاما ترتق الجوارب في غرفة الطعام ، التي كانت بسيطة الاثاث قديمته .. وبدأ فوق الحاسج الخشبي المواجه للحوش صف من اوعية حمراء بها نباتات طبية ... وقال الطبيب حال جلوسه الى المائدة المستديرة :
- مسكين بنيامين .. انه مشغول بحكاية الملصقات .
فقالت زوجته : كل انسان مشغول بها ...
وتدخلت انجيلا قائلة : ان نساء « توفار » مهاجرات من البلدة ..

وقالت زوجته وهي تغرف الحساء في الصحاف :
- انهن يبعن كل شيء في استعجالهن ...
فقال طبيب الاسنان مناقضا لهواجس زوجته :
- انهن يبعن كل شيء في استعجالهن ...
وجعل ينفخ فوق ملعقة الحساء منتظرا تعقيبا من ابنته .. لكنها لم تستجب لتوقعاته ... وانما راحت تتحدث عن السيرك ، فقالت ان فيه رجلا نشر زوجته نصفين ، وقزما غنى ورأسه في فم الاسد ، ولاعب عقلة ادى ثلاث قفزات في الهواء فوق وسادة من الخناجر ... فانصت الاب اليها وهو يأكل في صمت ... وفي نهاية الطعام وعد ان يذهبوا جميعا الى السيرك هذه الليلة ، ما لم تمطر ...
وفي غرفة النوم وهو بهيئ أرجوحته للقيولة ، بدا له ان هذا الوعد لم يكن له تأثير على مزاج زوجته ... فهي أيضا كانت على

استعداد لهجر البلدة اذا هم علقوا ملصقا فاحشا عن أسرته . . .
والواقع ان طبيب الاسنان انصت اليها دون دهشة . . . وقال
لها :

— سيكون شيئا مضحكا اذا بدا انهم لم يستطيعوا التخلص منا
بالرصاص ، فتخلصوا منا بقصاصة ورق الصقوها على الباب ! . . .
دخل حذاه ودلف الى الارجوحة وما يزال بالجورب ، وقسال
يهدئها :

— اكن لا تنزعجى . . ليس هناك اقل خطر من ان يضعوا ملصقا على
بابنا . . .

فردت قائلة : انهم لا يحترمون احدا . . .
فقال الطبيب : المسألة فيها نظر . . . فى حالتى فانهم يعرفون ان
المسألة لها ثمن آخر . . .

فتمددت المرأة فوق الفراش وهى فى اعياء بالغ ، قائلة :

— هذا اذا كان الذى يضع الملصقات يعرف ماتقول . . .

فقال طبيب الاسنان بعزم :

— ان الذى يضع الملصقات يعرف تماما . . .

اعتاد العمدة ان يمضى اياما دون ان يأكل . . . كان ببساطة ينسى
الاكل . . . وكان نشاطه ، الذى يجعله كالمحموم فى مناسبات ، يشبه
فى شدوده فترات الخمول والضيق الطويلة التى كانت تلم به فيطوف
هائما على وجهه فى البلدة دون اى هدف ، او يعلق على نفسه مكتبه
المصفح فلا يشعر بمضى الوقت . . . كان وحيدا على الدوام ، بلا
اهتمامات خاصة ، ولا عادات منتظمة تحكم تصرفاته . . . كان مدفوعا
فقط بسرعة قاهرة غلبة وتراه بظهر فى الفندق فى اية ساعة ، ويأكل
كل مايقدم اليه . . .

وفى هذا اليوم تناول الغداء ، مع القاضى اركاديو . . . وقد امضيا
فترة بعد الظهر كلها معا الى ان تم بيع قطع الارض بصورة قانونية . .
لقد ادى الخبراء واجبه . . ولم تدم مهمة وكيل المالك التى حددت
له بصفة موقوتة اكثر من ساعتين . . وعندما دخلا الى البار بعد
الساعة الرابعة بقليل بدا وكأنهما قاما بأشق عمل فى حياتهما . .

وقال العمدة وهو يفرك يديه :
... اذن فقد انتهينا من العملية ...
لم يلتفت اليه القاضى اركاديو ، وراه العمدة يتحسس منصة البار ،
فأعطاه مسكنا ، وأمر له بكوب ماء ... فقال القاضى اركاديو وهو
يسند جبينه على المنصة : بيرة مثلجة ...
فقال العمدة وهو يضع النقود على المنصة :
- زجاجة كاملة ... انك تستحقها بعد أن اشتغلت كالرجال
كان البار فى حالة ترقب وانتعاش ، فالكل ينتظرون بحماس
موكب السيرك ...

وراح العمدة يراقب الموكب وهو فى البار ، تهزه دقات الطبول
والصدح المتعالى للآلات النحاسية ... وفى طليعة الموكب مرت فتاة
ترتدى بدلة مفضضة امتطت فيلا قرما ، وجاء بعدها المهرجون ولاعبو
العقلة ... وكان الطقس قد صحا تماما وبدأت أشعة الشمس الاخيرة
تدفع الهواء .. وعندما توقفت الموسيقى حتى يتسنى للرجل الذى
يمشى على الارجل الخشبية الطويلة أن يقرأ برنامج السيرك ، بدا وكأن
البلدة كلها على رأسها الطير صمتا وانصاتا ...
وراقب الاب أنجيلو العرض من مكتبه وهو يتابع أنغام الموسيقى بهز
رأسه ... وقد لازمه شعور الانسباط هذا حتى مستهل المساء ،
عندما الفى نفسه فى غرفة النوم ... لكنه لم ينم قبلما سطر رسالة
موجزة يستدعى فيها العمدة ...

وفى أحد مقاعد الضيوف الممتازين جلس العمدة فى السيرك بالحاح
من مديره ... فشهد « نمره » الافتتاح التى أداها لاعبو « العقلة »
وتلاهم المهرجون ... ثم ظهرت كاساندرا مرتدية ثوبا من الخمسل
الاسود وهى معصوبة العينين ، تدعو الجمهور الى قراءة أفكارهم ...
فهرب العمدة من السيرك هروبا ... وقام بطوافه المعهود فى البلدة ،
حتى اذا كانت الساعة العاشرة قصد الى ثكنات البوليس حيث كانت
رسالة الاب فى انتظاره ، لكى تثير انزعاجه بطابعها الغريب ...
وكان الاب أنجيلو قد بدأ يخلع ملابسه حين سمع طرق العمدة على
الباب ، فقال :

- يا الهى ! ... لم أكن أنتظر بك بهذه السرعة !..
ومهما يكن فقد قدم له الاب أنجيلو زجاجة مياه غازية ، ودخل فى
صلب الموضوع قائلا :

- اننى ازعجتك لكى اعبر لك عن قلقى لعدم اهتمامك بمسألة
« الملصقات الفاحشة » ...

- غريب يا أبى أن أراك تنشغل أنت أيضا بهذه المسألة .
فقال الأب أنجيلو فى شىء من الارتباك :

- أن ما يشغلنى ليس مسألة الملصقات فى حد ذاتها ... بل هو
شعورى بوجود حالة من الظلم والجور فى هذا ..

فقال العمدة وهو عاكف على فتح الزجاجاة وارتشاف فورتها :
- هناك أعمال خفية تدور هنا .. وأصارك يا أبى اننى لا أعرف
مالذى يمكن فعله ...

- عليك أن تعرف الدخائل ... وعلى أى حال فليس هذا بالجديد
عليك ... والمأمول أن تفعل شيئاً قبل يوم الاحد ...

فقال العمدة : نحن الآن فى يوم الخميس ...
- أنا عارف ... لكن أظن أنه لم يفت الوقت لكى تؤدي
واجبك ...

نهض العمدة وأخذ يروح ويفدو فى الغرفة بحيوية حسده عليها
الأب أنجيلو ، وقال فى النهاية :

- بإمكانك أن ترى أن المسألة ليست مسألة اتخاذ اجراءات
استثنائية ...

ثم مال نحو القس الجالس فى مكتبه وراح يقول فى قلق نمت عليه
ملاحه ونبراته :

- انظر الى هذه النقطة الاساسية يا أبى ... ان البلدة فى حالة
هدوء ، والناس بدأوا يستردون ثقتهم فى السلطات .. وأى اظهار
للقوة فى هذا الوقت يكون مجازفة كبرى بالنسبة لمسألة لها هذه
الاهمية البسيطة ...

أبد الأب أنجيلو هذا الكلام برأسه ، وحاول أن يشرح غايته
قائلاً :

- اننى أشير ، بشكل عام ، الى وسائل معينة ، من اجراءات
السلطة ...

فاستطرد العمدة يقول دون أن يغير أسلوبه :

- على أى فأننى اضع كافة الظروف فى تقديرى ... أنت تعرف أن
هناك ستة من جنود البوليس محتجزين فى الثكنات ، يأخذون مرتباتهم

دون أن يفعلوا شيئا ... ولم أتمكن من إبدالهم بغيرهم ...
طقال الاب أنجيلو :

— أنا أعرف هذا ... ولست ألومك على أى شيء ..
فمضى العمدة يقول بحدة غير عابئة بالمقاطعة :

— والواقع أنه ليس سرا على أى إنسان أن ثلاثة منهم مجرمون أطلق
سراحهم من السجن وأمروا بالتخفى كجنود البوليس ...
وفي الظروف الحاضرة ، لن أجازف باطلاقهم فى الشوارع لى يصطادوا
أشباحا ...

فتح الاب أنجيلو ذراعيه وأقر العمدة على كلامه قائلا :
— طبعاً ، طبعاً ... هذا خارج عن البحث ... لكن لماذا لا تلجأ
مثلا ، الى الاستعانة بالمواطنين الصالحين ؟..
فاكمل العمدة احتساء الزجاجاة وقد بدا صدره وظهره غارقين فى
انعرق ، ثم قال :

— ان المواطنين الصالحين ، كما تسميهم ، ميتون من الضحك على
مسألة الملصقات ...

— ليسوا جميعا ...
— فضلا عن هذا ، فلا خير فى ازعاج الناس بسبب مسألة هى
فى المدى الطويل ليست هامة الى هذا الحد ...
واختتم العمدة كلامه منحازا الى المودة واللين :
— وبصراحة يا أبى ، فلم يخطر ببالى حتى هذه الليلة أنك وأنا يمكن
ان تشغلنا هذه الحكاية ...

مال الاب أنجيلو بدوره الى الملاينة ، قائلا :
— أنا معك فى هذا الى حد ما ... والحقيقة اننى سأقول فى موعظة
الاحد كلمات أعددتها بمثل هذا : « انها من النواحي الاخلاقية مسألة
أرهاب .. » ..

فقال العمدة وقد ابتسم ابتسامة عريضة :
— بديع .. بديع .. وانك عندما تضع المسألة امامى بهذه الصورة ،
فسوف ننظر فيما يمكننا عمله ..

شكره الاب أنجيلو .. وقال انه ليس من المبهج على أى حال ان
يصعد الى المنبر فى موعظة الاحد للافاضة فى مسألة كهذه ، ويكفى الآن
ان العمدة قد فهم قصده ومراميه ...

الفصل السابع

عاد دق الطبل الكبر الى الظهور مثل طيف من الماضي ... لقد
دوى عاليا امام البار فى الساعة العاشرة صباحا وشد اسماع السلدة
كلها ، الى أن ترددت الضربات التحذيرية الثلاث الاخيرة فبلغ الجرع
عند الناس مداه ...

ولم تمالك الارملة مونتبيل أن هتفت عندما شاهدت الابواب والنوافذ
تفتح والناس يتدفقون الى الميدان من كل مكان :
- الموت !.. الموت قد جاء ! ..

وعندما استردت جأشها بعد الصدمة الاولى فتحت ستائر الشرفة
ولاحظت الهرج السائد حول جندى البوليس الذى كان يستعد لقراءة
الامر العالى ... ثم ساد فى الميدان سكوت مطبق انتظارا لسماع
المنادى ... وعلى الرغم من اهتمام الارملة بالانصات التام من
جانبيها ، فانها لم تستطع أن تفهم أكثر من كلمتين ...

ولم يقدر احد ممن فى البيت أن يخبرها بما هناك .. وظل هذا
الغموض قائما الى أن خرجت الطاهية الى الشارع ثم عادت بالتفاصيل
... فقد أعيد فرض حظر التجول ابتداء من هذه الليلة الى أن تزول
الاسباب التى دعت اليه ... بموجب هذا القرار غير مسموح لاحد
بالخروج الى الشوارع بعد الساعة الثامنة مساء حتى الخامسة من
الصباح دون تصريح موقع عليه ومختوم من العمدة .. وقد صدرت
الاوامر الى رجال البوليس أن ينادوا بوقوف أى شخص يجدونه فى
الشوارع ثلاث مرات ، فان لم يطع الامر ، أطلق عليه الرصاص ...
وجاء فى القرار أن العمدة سيتولى تنظيم دوريات من المدنيين يعينهم
بنفسه ، للمعاونة مع البوليس فى المراقبة الليلية ...

راحت الارملة مونتبيل تقضم اظافرها ، وسألت عن الاسباب التى
دعت الى هذا الاجراء ، فأجابت الطاهية :

- لم يوضحوا هذا فى الامر العالى ... لكن كل انسان يقول انها
الملصقات ...

فقالَت الارملة المذعورة : ان قلبى حدثنى بهذا .. ان الموت يتغذى
على هذه البلدة ! ..

وبعثت تستدعى مستر كارميكل .. واذعانا لقوة طاغية استحوذت على مشاعرها ، أمرت بفتح غرفة المخزن واحضار حقيبة الملابس الكبيرة التى اشتراها جوزيه مونتييل لرحلته الوحيدة قبل مسوته بسنة ... وأخرجت من الدولاب بعض الملابس والاحذية ورتبتها بعناية فى قاع الحقيبة ... وبعد أن أتمت هذا شعرت بالراحة التامة التى طالما حلمت بها ، اذ تتصور نفسها بعيدة كل البعد عن هذه البلدة وهذا البيت ، فى غرفة بها موقد وشرفة صغيرة بها أصص الزهور ، وفيها يحق لها وحدها أن تستعيد ذكرى جوزيه مونتييل ، ولا يكون لها من شاغل سوى انتظار كل يوم اثنين لتلقى الرسائل الواردة من بناتها ...

وعندما وصل مستر كارميكل وجدها مرتدية اكثر ملابسها تواضعا ... ومالبثت أن اخرجت من جيبها كل مفاتيح البيت ، وعلى كل مفتاح بطاقة تعريف من الكرتون ، وقدمتها اليه قائلة :

— بين يديك أضع الدنيا الآثمة التى عاش فيها جوزيه مونتييل .. ولك أن تفعل بها ما تشاء ...

كان مستر كارميكل يخشى هذه اللحظة منذ زمن طويل ، وقد قال بعد جهد بالغ :

— تعنين أنك تريدبن الذهاب الى مكان ما ريثما تنتهى الاحداث الجارية ؟ ..

فردت الارملة بصوت هادىء ولكن قاطع :

— انى ذاهبة من هنا الى الابد ...

فجعل مستر كارميكل ، دون ابداء أى انزعاج ، يعطيها صورة مجملة للموقف ... ان تركة جوزيه مونتييل لم تتم تسويتها بعد .. وكثير من الممتلكات المقتناة فى القديم وبغير مراعاة للاجراءات الرسمية اصبح لها وضع قانونى غير مؤكد ... والى أن يمكن تنظيم عناصر تلك التركة المشوشة ، والتى كان جوزيه مونتييل نفسه لا يعرف عنها الا بيانات غامضة فى سنواته الاخيرة — فانه يستحيل تسوية الميراث ... ولا بد لابن الاكبر فى وظيفته القنصلية بألمانيا ، ولابنتيها المفتونتين بالاقامة فى باريس ، من العودة أو تفويض احد بتوكيل قانونى لكى يتسنى تقييم حقوقهم فى التركة ... والى أن يتم هذا ، فلن يمكن بيع أى شىء ...

ان هذا التنوير المجلل لذلك التيه الذى ظلت تتخبط فيه مدى

عامين لم يكن له تأثير على الارملة مونتييل هذه المرة ، اذ قالت باصرار :

- هذا لا يهم ... ان اولادى سعداء فى أوروبا ولا يريدون ان يكون لهم أى شأن بهذه البلدة المتوحشة ، على حد قولهم ... واذا أردت يامستر كارميكل ، فلك أن تجعل حزمة واحدة من كل شئ تجده فى هذا البيت وتلقى بها الى الخنازير ...

لم يعارضها مستر كارميكل ... وبادعاء انه لابد على أى حال من اتخاذ إجراءات معينة للرحلة ، توجه الى الطبيب ...

- الآن سوف نرى يا اجوارد يولا ، ماهى حقيقة وطنيتك .. عرف الحلاق والرجال الذين كانوا يتجاذبون الحديث فى دكانه صوت العمدة قبلما أبصروه لدى الباب ... وقد اضاف قائلا وهو يشير الى الاثنين الاصفر سنا :

- وأنتم يا حضرات ، ستحصلون هذه الليلة على البنادق التى طالما أردتم الحصول عليها ... وسنرى اذا كنتم من الفساد بحيث تستعملونها ضدنا ! .. ومع ذلك لم يكن من المستحيل ملاحظة لهجته الودية وهو يقول هذا ...

وقد رد عليه الحلاق قائلا :

- الكنسة احسن ... لاصطياد الساحرات ليس هناك سلاح افضل من الكنسة ...

قال الحلاق هذا دون ان ينظر اليه ، اذ كان يقص شعر اول زبون من زبائن الصباح ، وهو لم يحمل كلام العمدة على محمل الجد ... ولكن عندما رآه يتأكد من الموجودين من افراد الاحتياطى وهم بذلك يصلحون لحمل البنادق - عندها فقط فهم الحلاق انه واحد من المختارين ... وقال :

- هل صحيح يا حضرة الملازم انك ستحشرنا فى هذه المشكلة ؟ .. فرد العمدة قائلا : عجيب ! .. كنتم طول حياتكم تتهامسون لاجل بندقية ، والآن وقد أصبحت فى متناول اليد ، لا يمكنكم أن تصدقوا ! ..

ووقف العمدة أمام الحلاق ، فى وضع يشاهد فيه جميع الموجودين فى المرأة ، وقال منحازا الى أسلوب الحاكم المطلق :

- بجد ، عند الساعة السادسة هذا المساء ، على افراد الاحتياطى من الدرجة الاولى أن يتواجدوا فى الشكنات ...

فواجهه الحلاق فى المرأة قائلا :

- وماذا اذا أنا ذهبت مصابا بالتهاب رئوى ؟..

فرد العمدة قائلا : سوف نشفيك فى السجن ...

وفى البار كان الفونوغراف يعزف أغنية عاطفية .. لكن المكان كان خاليا ، وان بقيت على بعض الموائد زجاجات وكؤوس لم يتم شربها ...

وقال دون روك حين شاهد العمدة داخلا :

- هذه حقيقة ورطة كبيرة ... سوف نضطر الى اغلاق البار فى الساعة السابعة ...

فاتجه العمدة رأسا الى آخر القاعة حيث بدت موائد لعب الورق مهجورة أيضا ... ففتح باب دورة المياه ، وأطل فى المخزن ، ثم عاد الى البار ، حيث قال له دون روك من خلف المنصة :

- مع هذه الورطة ، سبضطر الانسان أن يتجه الى التهريب ..

فقال العمدة : سيدوم هذا يومين أو ثلاثة فقط ...

وعند الناصية لحق به مدير السينما ، وقال صائحا :

- هذا ماكان ينقصنى ... بعد أجراس المنع من جانب القسيس ، سنسمع الآن نكير حظر التجول !..

فربت العمدة على كتفه وحاول أن يتابع طريقه ، قائلا :

- سوف ننزع ملكية السينما منك ...

فقال المدير : لا يمكنك ... ان السينما ليست من المرافق العامة .

فرد العمدة قائلا : فى حالة الطوارئ ، حتى السينما يمكن اعتبارها من المرافق العامة ...

وعند هذا الحد فقط تلاشت ابتسامته ... ولما وصل الى الشكنات أسرع يرتقى درجات السلالم اثنتين اثنتين ، وعند الدور الثانى فتح ذراعيه وعاد الى الضحك من جديد ، وهتف قائلا :

- وانت أيضا ؟! ..

كان الجالس في الكرسي المنطوى رئيس السيرك ... وكان يدخن غليوناً وهو خلى البال ... ومالئ أن أشار الى العمدة بالجلوس وكأنه صاحب الدار ، وقال له :

- لتتكم كلام الاعمال يا حضرة الملازم ...

فجذب العمدة مقعداً وجلس في مواجهته ... فأمسك رئيس السيرك الغليون بيده المرصعة بالاحجار الملونة وقال بلهجة معنوية :

- هل يمكننا أن نتكلم بصراحة مطلقة ؟

ولما أوماً العمدة ايجاباً قال الرجل :

- اننى عرفت حقيقة الحال عندما رأيتك أمس تحلق ... ان لى خبرة بمعرفة الناس ... وأنا أعرف مسألة حظر التجول هذه بالنسبة لك ..

تطلع اليه العمدة متفكياً ، بينما مضى الرجل يقول :

- ... اما بالنسبة لى ، فاننى ازاء سداد الالتزامات واطعام سبعة عشر شخصاً وتسعة حيوانات ، اجدنى امام كارثة ...

- هكذا ؟ ..

فقال رئيس السيرك : ولهذا فاننى اقترح ان يبدأ منع التجول فى الساعة الحادية عشرة ندلاً من الثامنة ، وسنقسم الارباح مناصفة فى الحفلة المسائية .

مضى العمدة فى ابتسامته ، وقال :

- اظن أنه لم يكن من الصعب أن تجد شخصاً من أهل البلدة قال لك أننى لص ! ...

فقال رئيس السيرك : هذه صفقة تجارية مشروعة ..

فقال العمدة وقد اكتسبت ملامحه سمات الجد : سنتكلم فى هذه المسألة يوم الاثنين ..

فرد الرجل قائلاً : الى يوم الاثنين اكون قد بعث جلدى ... نحن اناس فقراء ...

فقال العمدة وقد صحبه الى السلام مربتاً على كتفه : لا حاجة بك الى أن تقول لى هذا ... اننى أعرف كل شئ عن هذا العمل ..

وقبل أن يبدأ رئيس السيرك فى النزول قال له العمدة بلهجة المواساة :

- ابعت الى بكاساندرنا هذه الليلة ..
حاول الرجل أن يتلفت نحوه ، بيد أن العمدة ضغط على كتفه
بصورة قاطعة ... فقال رئيس السيرك :
- طبعاً ... وهذا مخصص من الحساب ...
فقال العمدة باصرار : أرسلها . وسنتكلم غدا ..

دفع بنيامين البقال انبواب المظلل بأنامل أصابعه ، بيد أنه لم يدخل
الببت ... وهتف باهتياج مكظوم :
- النوافذ يانورا ! ..

كانت نورا جاكوب ، الناضجة والمليئة ، ذات الشعر المقصوص
على طريقة الرجال ، ممددة أمام المروحة الكهربائية في غرفة
المعيشة المعتمة ... كانت تنتظر بنيامين لتناول الغداء .. وما أن
سمعت نداءه حتى نهضت بمشقة وفتحت النوافذ الأربع المظلة على
الشارع ... وسرعان ما تدفقت موجة حارة الى الغرفة ذات الزخارف
الطاووسية والاثاث المكسو بقماش ذي أزهار مطبوعة ، ولكن هذا
التأثير كله كان ينم عن ترف متواضع ..

قالت له : ماهى الحقيقة فيما يقوله الناس ؟ ..

- انهم يقولون أشياء كثيرة ...

فقالت نورا جاكوب بالتحديد : بخصوص الارملة مونتيل .. انهم
يطوفون في كل مكان قائلين أنها جنت ...

فقال بنيامين : اظن أنها فقدت عقلها منذ مدة ... وفي هذا
الصباح حاولت أن تقفز من شرفتها ...

كانت المائدة ، المرئية من الشارع تماما ، قد وضع مقعدان فقط
عند طرفيها المتقابلين ، فقالت نورا وهى تصفق بيديها لاحضار
الغداء :

- هذا عقاب من الله ..

ولما جاءت بالمروحة الى غرفة الطعام قال بنيامين :

- ان بيتها ظل ممتلئاً بالناس منذ هذا الصباح ...

فردت نورا جاكوب قائلة :

- هذه فرصة طيبة لرؤية المنزل من الداخل ! ..

وجاءت فتاة سوداء مرشقة الشعر « بفيونكات » حمراء كثيرة تحمل الحساء الباخر الى المائدة ... فشاعت فى الفرفة رائحة الدجاج المسلوق وغدت درجة الحرارة لا تطاق ... فشد بنيامين فوطة المائدة الى ياقته قائلا : « فى صحتك » ... وحاول ان يحتسى المعلقة الساخنة ، فقالت له بضيق :

- انفع فيها ، ولا تكن ابله ... والى جانب هذا لابد ان تخلع سترتك ... ثم ان تدقيقك فى عدم دخول البيت والنوافذ مغلقة سيجعلنا نموت من الحر ! ...

فقال : هذا شئ لا يمكن الاستغناء عنه اكثر من اى وقت مضى .. بفتح النوافذ لن يستطيع احد ان يقول انه لم يشهد من الشارع كل حركة من حركاتى عندما اكون فى بيتك ..

فافتت فمها الملعقة قليلا عن لثة قانية الحمرة كانت هى ابتسامتها ، وقالت :

- لا تكن سخيفا ... فيما يختص بى ، فان لهم ان يقولوا كل ما يحلو لهم ..

ولما استطاعت ان تشرب الحساء مضت تقول بين الوقفات :

- ربما اقلق حقيقة لما قد يقولونه عن مونيك « ابنتها البالغة من العمر خمسة عشر عاما والتي لم تعد الى البيت اثناء العطلات المدرسية منذ ان سافرت الى المدرسة لأول مرة » .. لكنهم لن يستطيعوا ان يقولوا عنى شيئا كل انسان أصبح يعرفه فعلا ...

لم يصوب بنيامين اليها نظرة الاستنكار المعهودة منه كلما كانت تقول له هذا الكلام ... وراحا يتناولان الحساء صامتين ، تفصلهما مائدة الستة اقدام ، وهى أقصر مسافة يمكن ان يسمح بها ، خصوصا امام أعين الناس ... وعندما كانت بعيدة عنه فى المدرسة ، منذ عشرين عاما ، كان يكتب اليها رسائل تقليدية مطولة ، كانت ترد عليها برسائل حارة العاطفة .. وفى احدى الاجازات المدرسية ، وفى رحلة خلوية ، جذبها نستور بنيامين من شعرها وهو سكران تماما الى ركن ازربية ، وصارحها قائلا دون ان يترك لها اى خيار : « اذا لم تتزوجينى فسأطلق عليك النار » ... وقد تزوجا فى نهاية العطلة المدرسية ... ثم انفصلا بعد عشر سنوات ..

ومهما يكن فقد قال لها بنيامين تعقيبا على كلامها :
- على أى حال لا سبب يدعو الى اثاره تخيلات الناس بأفعال
الابواب والنوافذ ..

وبعد أن شرب القهوة نهض قائلا :
- سأذهب الآن ... ان مينا لابد ان تكون على نار ...
ولما وصل الى الباب أردف وهو يلبس قبعته :
- البيت مثل فرن متقد ! ..

فردت عليه قائلة : هذا ماكنت أقوله لك طول الوقت ! ..
وانتظرت حتى شاهدته من النافذة الاخيرة يبتعد ، وعندئذ أعادت
المروحة الى غرفة النوم وأغلقت الباب ، وتجردت تماما من ملابسها ،
وفي النهاية دلفت الى الحمام كعادتها كل يوم بعد الغداء ..

كانت تبصر نستور بنيامين أربع مرات كل يوم وهو يمر أمام البيت
... وكان كل انسان يعرف أنه يعيش مع امرأة أخرى ، وأن له منها
أربعة أطفال ، وأنه يعتبر أبا مثاليا ... ومرات عديدة على مدى
الاعوام القلائل الماضية ، كان يمر أمام المنزل مع الاطفال ، ولكن
لم يمر مع المرأة بتاتا ... ولقد شهدته وهو يأخذ في النحول ، والكبر
والشحوب ، وهو يتحول الى شخص غريب عنها بدأ تعلقه الماضى بها
غير مفهوم ... وأحيانا كانت فى أثناء فترات قيلولتها الفردية
تشتيه من جديد ، لا كما كانت تراه وهو يمر أمام المنزل ، ولكن كما
كان أثناء الزمن الذى سبق مولد ابنتها مونيكا ، حين كان حبه لم
يجعل منه مثل الآن شخصا لا يطاق ...

نام القاضى أركاديو حتى الظهر ، وهكذا لم يعلم بالامر العالى حتى
وصل الى مكتبه .. ولكن سكرتيره من ناحية أخرى تملكه الانزعاج
عندما طلب اليه العمدة أن يعد الوثيقة ...

وقال القاضى أركاديو بعد ان اطلع على التفاصيل :
- ان الامر صيغ بعبارات صارمة ... لم يكن لهذا موجب ..
- هو نفس الامر العالى مثل كل مرة ...

فقال القاضى : هذا صحيح .. لكن الامور تغيرت ، والاسلوب قد تغير أيضا .. لابد أن الناس قد أصابهم الفزع ..

ومع ذلك ، طبقا لما اكتشفه القاضى اركاديو فيما بعد وهو يلعب الورق فى البار ، فان الخوف لم يكن هو الاحساس الغالب ... كان احساسا بالانتصار الجماعى ، بما اكده فى وعى كل الناس ، من أن الامور لم تتغير عما كانت ... ولم يستطع القاضى اركاديو أن يستدرج العمدة الى حقيقة الوضع عندما غادرا البار ، اذ قال له :

— وهكذا ترى أن « المصقات الفاحشة » لم تكن تبرر هذا التعب ... فالتاس سعداء ...

فجذبه العمدة من ذراعه قائلا : لم يعمل شيء ضد الشعب ... هذا مجرد اجراء روتينى ...

واسرع العمدة فى سيره كأنما يوشك على شيء عاجل ، وان كان المرء يدرك بعد أن يطول به السير أنه لم يكن يقصد وجهة معينة ... ثم أردف قائلا :

— ان هذا الاجراء لن يدوم الى الابد .. فبحلول يوم الاحد سنكون قد قبضنا على المهرج الذى هو وراء هذه المصقات الفاحشة ... ونست اعرف سببا لفكرتى هذه ، ولكننى اظن أنه امرأة ...

لم يشاطره القاضى اركاديو هذا التفكير ، وعلى الرغم مما شاب المعلومات التى جمعها السكرتير من نهاون ، فقد كان اعتقاد القاضى ان المصقات لم تكن من عمل فرد واحد ... اذ بدا له انها لم تتبع نهجا معيناً ... وكان بعضها فى الايام الاخيرة قد اتبع نهجا آخر ، هو الرسوم ... وقد اختتم القاضى اركاديو قائلا :

— قد يكون الفاعل رجالا ونساء مختلفين ... كل منهم يعمل لنفسه ..

فرد عليه العمدة قائلا : لا تعقد الامور امامى ايها القاضى ... يجب ان تعرف انه فى كل مشكلة ، حتى لو كان المسئول فيها عددا من الناس ، فهناك دائما واحد تقع عليه التبعة ...

فقال القاضى اركاديو : هكذا قال الفيلسوف ارسطو يا حضرة الملازم ...

ثم اضاف باقتناع : على اى حال فان الاجراءات التى اتخذت تبدو فى نظرى متطرفة ... وأن الاشخاص الذين يضعون المصقات سوف ينتظرون ببساطة انتهاء حظر التجول ...

فقال العمدة : هذا لايهم ... فى النهاية لابد لنا من الحفاظ على
مبدأ السلطة ...

وكان المتطوعون قد بدأوا يتجمعون فى الشكنات ... ان الحوش
الصغير المحاط بأسوار الاسمنت المسلح العالية والمطبخ بالدم الجاف
وثقوب الرصاص كان مذكرا بالاوقات التى لم تكن توجد فيها
زئزانات كافية ، وكان السجناء ، يحجزون فى الحوش .. وبعد ظهر
هذا اليوم كان جنود البوليس غير المسلحين يتجولون خلال الردهات
وهم « بالشورت » ... وفجأة صاح العمدة لدى الباب :
- روفيرا ... احضر لهؤلاء الاولاد شيئا يشربونه ..

راح الجندى يلبس زيه ، وسأل : روم ؟ ..
فصاح العمدة وهو فى طريقه الى مكتبه المصفع : يا مففل ! مياه
غازية ...

ولما أبصرهم القاضى أركاديو من الدور الثانى جالسين فى الحوش
يدخنون قال للعمدة : هل هم متطوعون ؟ ..
فأجاب العمدة : ياليت هذا ... اننى اضطررت الى سحبهم من
تحت أسرة نومهم سحبا ...

فقال القاضى : يبدو لى كأن المعارضة هى التى جمعتهم ...
وعندما فتحت الابواب الفولاذية الثقيلة للمكتب انبعثت برودة
ثلجية ... وقد رد العمدة مقبلا على ملاحظة القاضى وهو يبتسم :
- اذا صح ماقلت ، فمعناه أنهم صالحون للقتال ! ..

وأضاء النور فى حصنه هذا ... وكان فى طرف منه سرير عسكري
ودورق زجاجى وكوب فوق مقعد .. وتراصت على الجدران العارية
بنادق عادية وبنادق رشاشة ... ولم يكن بالحجرة منافذ للتهوية
سوى طاقات ضيقة عالية يمكن الاشراف منها على أرضفة المينسء
النهرى والشارعين الرئيسيين فى البلدة ... وكان المكتب لدى الطرف
الآخر ، بجانب الخزانة ...

وعكف العمدة على ادارة تركيبة قفل الخزانة ، قائلا :
- لكن هذا لايهم ... سأعطيهما جميعا بنادق ...

وجاء جندي البوليس . فأعطاه العمدة بعض أوراق بنسكوت
قائلا :

— هات لكل واحد منهم علبتى سجائر ...

وعندما صارا وحدهما مرة أخرى عاد العمدة يقول للقاضي :

— مارأيك فى هذه المشكلة ؟...

فأجاب القاضي متأملا : مخاطرة لافائدة منها ...

فقال العمدة : ان الناس سوف يقفون وافواههم مفتوحة ...
واظن فضلا عن هذا ان هؤلاء « المناكيد » لن يعرفوا ماذا يفعلون
بالبنادق ..

فقال القاضي : قد يرتبكون فعلا .. لكن هذا لن يدوم طويلا ..
وبذل القاضي جهدا للتغلب على الشعور بالخواء فى معدته ، ثم قال
ساهما :

— احذر يا حضرة الملازم ... لا تكن انت الشخص الذى يدمر كل
شئ ...

فخرج به العمدة من المكتب وهمس فى اذنه بلهجة خفية :

— لا تكن ابله أيها القاضي ... لن يكون معهم سوى خرطوش
فارغ ...

وعندما نزلا الى الحوش كانت الانوار مضاءة ... وكان المتطوعون
يشربون مياها غازية بين اسراب ذباب الخيل التى كانت تلقى بثقلها
على المصابيح المتسخة ... وأنشأ العمدة وهو يتمشى فى الحوش
الذى كانت تتخلله برك المياه الراكدة يشرح للمتطوعين بلهجة أبوية
مهمتهم فى هذه الليلة : فسوف يوقفون اثنين اثنين على النواحي
الرئيسية بأوامر تقضى باطلاق النار على أى واحد كان ، رجلا أو
امراة ، اذا عصا النداء الثلاثى بالوقوف ... وأوصاهم بالتزام
البسالة والحكمة ... وبعد منتصف الليل سوف يزودون بالطعام
... وقال العمدة انه يأمل بعون من الله أن كل شئ سيمت دون أية
متاعب ، وأن البلدة ستعرف كيف تقدر هذا الجهد من جانب
السلطات ، لصالح النظام الاجتماعى ! ..

نهض الاب أنجيلو عن المائدة حين دقت الساعة الثامنة ... قاطعا
نور الحوش ، وجذب الزلاج على الباب ، وصلى ..

وعند مدخل دارها كانت الارملة آسيز ناعسة فى طراوة المدخل
قرب اقفاص الطيور المكسوة بقماش أسود ، عندما سمعت الدقة
الثانية ، فقالت دون أن تفتح عينيها :
- ألم يأت روبرتو بعد ؟ ..

فردت خادمة كانت قاعدة عند الباب بأنه فى الفراش منذ الساعة
السابعة ...

ولم يكن طبيب الاسنان قد فرغ بعد من الاستماع الى نشرة
الاخبار ... ولما تذكر أن ابنته انجيلا كانت تحل الفاظ الكلمات
المتقاطعة تحت مصباح الحوش ، أمرها دون أن ينظر قائلا :

- اقفلى الباب الكبير وادخلى وحلى الكلمات فى غرفتك ...
واستيقظت زوجته على هذا الكلام مفزوعة ...

ولم يلبث روبرتو آسيز الذى كان فى الفراش منذ السابعة فعلا ،
ان قام لينظر الى الميدان من خلال النافذة المواربة ، فلم يبصر سوى
اشجار اللوز القائمة والضوء الاخير الذى كان ينبعث من نافذة شرفة
الارملة مونتيل ... فأضاءت زوجته النور ، وبهمسة مكتومة جعلته
يعود الى الفراش ... وعلى البعد كانت الكلاب تنبح ..

وفى غرفة نوم دون لالومو مسكيت التى تكدست فيها اللعب
والزجاجات الفارغة ، كان الصيدلى يفظ فى النوم والجريدة مبسوطة
على بطنه ونظارته فوق جبينه ... وكانت زوجته المشلولة التى
روعتها ذكرى ليال سابقة مثل هذه الليلة تهش البعوض بخرقه وهى
لا تفتأ تعد الساعات فى ذهنها ... وبعد أن تلاشى نباح الكلاب
والصيحات المتباعدة وجرى الاقدام المتخفى ، ساد السكون مطبقا ..

وفى منزل الدكتور جيرالدو قال الطبيب لزوجته التى كانت تضع
ادوية الطوارئ فى حقيبته قبل أن يأويا الى الفراش :

- تأكدى من وجود الكورامين ...

والواقع أن كليهما كان يفكر فى الارملة مونتيل ، التى كانت راقدة
مثل جثة بتأثير متعاطته من عقاقير مسكنة ...

وظوى الدكتور جيرالدو كتابا بيده حتى تلاشى تموج نفيء بدء حظر
التجول فى الثامنة ... فوضعت زوجته الحقيبة على المنضدة الليلية
وتمددت ووجهها الى الحائط واطفأت مصباحها ... وفتح الطبيب

الكتاب ولكنه لم يقرأ ... وكان كلاهما يتنفس تنفسا متقطعا وهما وحدهما في بلدة أحالها السكن الشامل المطبق الى حيز غرفة نوم ...

قالت له : فيم تفكر ؟ ..

- لا شيء ...

ولم يركز الطبيب أفكاره مرة أخرى الا في الساعة الحادية عشرة حين عاد الى ذات الصفحة التي توقف عندها عندما سرى حظر التجول في الثامنة ... لكنه ثنى زاوية الصفحة ووضع الكتاب على المنضدة ... وكانت زوجته قد استسلمت للنوم ... وفي الاوقات السابقة كان الاثنان يظلان مستيقظين حتى الفجر ، محاولين تحديد مكان وظروف الرصاص المنطلق ... ومرات كثيرة كانت اصوات الاحذية العسكرية والاسلحة تصل الى باب بيتهما ، فيجلسان في الفراش منتظرين سماع طلقات الرصاص التي تهشم بابهما ... وكمن من الليالى - بعد معرفتهما كيف يميزان بين اشكال الارهاب التي لا حصر لها - لم تذق عيونهما النوم ورأساهما فوق الوسادة مسهدين مترقبين ...

وفي فجر احدى الليالى سمعا الصوت المتخفى الذى يسبق وابل الرصاص ، وعند ذلك ينبعث صوت العمدة المرهق قائلا لزبانيته : « ليس هنا ... انه غير مشترك فى أى شيء » ...

وفي هذه الليلة بدأ سقوط المطر بعد منتصف الليل .. فتخلى الحلاق ومتطوع آخر عن دركهما عند ناصية الارصفة النهرية واحتميا من المطر تحت افريز سقف دكان بنيامين البقال ... ومالبث الحلاق ان أشعل سيجارة وجعل يفحص نوع البندقية فى لهب الثقاب ، فى اللحظة التي تدفق فيها سيل المطر من الافريز وغمر كعب بندقية زميله ، الذى جفف الماء بكمه قائلا :

- ياها من مشكلة غريبة ! .. ها نحن الاثنان هنا ، وكل منا ببندقيته ، والمطر يغمرنا ! ..

ومن البلدة التي أطفئت أنوارها لم تكن تسمع أية اصوات سوى تساقط المياه من حواف الافاريز ...

وقال الحلاق لصاحبه : كلنا تسعة ، مع العمدة ... ولكن هناك ثلاثة محبوسون في الشكنات ...

'وفجأة انبعث وهج بطارية العمدة فأعمى بصرهما ، ولم يعرفاه الا بعد ان أطفأ البطارية ويمم نحوهما تحت حماية الافريز ... كان يرتدى معطف خنادق وقد علق فوق كتفه بندقية رشاشة ، يرافقه جندي بوليس ... وبعد ان نظر في ساعة يده قال للجندي :

- اذهب الى الشكنات وانظر ماذا جرى للطعام ...

فاختفى الجندي في المطر بحيوية المقاتل في الميدان ... وعندئذ جلس العمدة على الارض بجانب المتطوعين وسأل : هل من مشكلة ؟ .. فأجاب الحلاق : لا شيء ... الى متى يا حضرة الملازم سوف تبقىنا هكذا ؟ ...

فأجاب العمدة : لا اعرف .. حاليا ، الى نهاية فترة حظر التجول ... سنرى ماذا يحدث غدا ... فهتف الحلاق : حتى الخامسة !.

فقال زميله : اما انا فكننت على اقدامى منذ الرابعة ..

فالتفت العمدة اليه وقال مغتما : لا تقل لى ... اننى امضيت نصف حيائى في هذه المشكلة .. سوف يغمى على من قلة النوم .. فقال الحلاق : بغير داع .. هذا شيء غير مفهوم بالرة .. هو أشبه بما تفعله النساء ..

فتنهذ العمدة قائلا : اننى بدأت أفكر هذا التفكير ...

وعاد جندي البوليس لكى يبلغ أنهم ينتظرون توقف المطر للطواف بالطعام ... ثم أبلغ رسالة أخرى ... فقد قبض على امرأة بغير تصريح مرور ، وهى تنتظر العمدة في الشكنات ..

هانت المرأة كاساندرا ... وقد وحدها العمدة نائمة في الكرسي المنطوى ملتفة بحرملة من المطاط فى الغرفة الصغيرة المضأة بالمصباح المعتم فى الشرفة ... فقرصها العمدة فى انفها ، فانفضت متأوهة ، وفتحت عينيها ... وقالت :

- كنت أحلم ...

اضاء العمدة مصباح الغرفة ، فرفعت يديها الى عينيها تتقى
الوهج متشنية متذمرة برهة ، وقالت :

- أنت شخص غريب ... أنا هنا منذ الحادية عشرة ..

فقال معتذرا : كنت أنتظرك فى البيت ..

- لم يكن معى تصريح مرور ...

فقال العمدة باسماء وهو يعلق معطفه :

- اننى نسيت تماما ..

واخذ كرسيه وضعه بجانبها قائلا : أرجو الا يكونوا حاسبوك
الشخص الذى يعلق الملصقات ...

عادت المرأة الى الاسترخاء ، وقالت : ياليتهم فعلوا هذا ... اننى
أعشق المواقف المشحونة بالعواطف القوية ...

وفجأة بدا العمدة تأثها فى الغرفة ... بدا كالاعزل ، وراح
« يطرقع » عقل أصابعه ، ثم غمغم قائلا :

- أريد منك معروفا ...

جعلت تنفرس فيه ... فمضى يقول : كلام بينى وبينك ... أريد
منك أن تقرئى الورق لترى ان كان يمكن أن نكتشف من هو المسئول
عن هذه الورطة ...

أشاحت برأسها عنه ... وبعد صمت قصير الامد قالت :

- فهمت ...

فقال العمدة يستحثها : اننى أفعل كل هذا من اجلكم ياناس اكثر
من أى شىء آخر ...

فاومات براسها ، وقالت : اننى عملت هذا فعلا ...

لم يستطع العمدة أن يكتم قلقه المشتد ، بينما مضت كاساندرا
تقول بلهجة درامية محسوبة : ان الشواهد كانت واضحة جدا الى
حد اننى ارتعبت بعد أن رأيتها على مائدة الاوراق ...

- من هو الفاعل ؟ ..

- البلدة كلها ... ولا احد بعينه ! ..

الفصل الثامن

جاء أبناء الارملة آسيز لحضور القداس يوم الاحد .. كانوا سبعة بالإضافة الى روبرتو آسيز ... وكان لهم طابع مشترك ، هو القوة البدنية ، والخشونة ، والاقبال على العمل الشاق ، والطاعة العمياء لامهم ... وكان روبرتو آسيز أصغرهم والوحيد الذي تزوج بينهم ، كان بوداعته وشماله الرقيقة المبينة لطباع أخوته ، أقرب الى تعويض الام عن مشاعر اللهف التي طالما احست بها انتظارا لانجاب بنت لم يقدر لها أن ترزق بها ...

أوبعد أن أمرت الارملة آسيز بنقل ماجاءوا به من دجاج وخضر وجبن وسكر ولحم مقدد الى الاماكن المعدة لها ، كلفت الخادومات باختيار أطايبها وارساله الى الاب أنجيلو ...

لقد شكر الاب أنجيلو هذه الهدايا ودعا لأصحابها ... وعندما انتقل الى صحن الكنيسة كانت ممثلة عن آخرها ... واسترعى نظره وجود الارملة آسيز يحف بها أبناءها ، وربىكا آسيز زوجة الابن الأصغر ... ولقد استغرقت موعظة الاب أنجيلو عشر دقائق ، شردت مثله خلالها غير واحدة من الافكار التي أعدها سلفا في خلوته ... ثم انه اختتم الموعظة دون اشارة الى موضوع الملصقات الفاحشة ...

وكانت زيارة الارملة آسيز وأبنائها للكنيسة مثار تعليق بين الدكتور جيرالدو وزوجته عندما أبلغته هذا الخبر قبيل افطارهما صباح هذا الاحد ، وفي هذا قال الطبيب :

— اذن فالارملة آسيز عادت الى زيارة الكنيسة مرة أخرى ؟ .. فقالت الزوجة : انها ذهبت مع أسرتها ثلاث مرات هذه السنة والظاهر أنهم لن يجدوا وسيلة أفضل من هذه للترفيه عن انفسهم ! ...

فقال الطبيب : الاغنياء مجانين .. ومهما يكن فقد انصرف الدكتور جيرالدو لعيادة الارملة مونتيل ..

وفى طريقه صادف بعض النساء العائدات من الكنيسة يعرجن على منزل الارملة لزيارتها ... ولما دخل عليها وجدها جالسة فى الفراش مرسلة الشعر ، رافعة حافة الملاءة الى صدرها وفى حجرها مشط ومراة ومن حولها بعض الزائرات ... وقد استقبلته الارملة قائلة :

- اذن فقد قررت ان تحضر الى « حفل الاستقبال » انت ايضا ! .

فقالت احداهن : انها تحتفل بعيد ميلادها الخامس عشر ...

فقالت الارملة مونتيل مصمة بابتسامة محزونة :

- الثامن عشر فى الحقيقة .. !

ثم تمددت فى الفراش من جديد وجذبت الملاءة حتى الرقبة ، واضافت مداعبة :

- طبعا لم ندع احدا من الرجال ، خصوصا انت يادكتور ، وهذا حظ سيئ ... !

فقال الطبيب مبتسما وهو يتفرس فى بريضته : انت فى حالة مهتزة ... وقد ادركت الان انه لا لزوم لى هنا ..

على انه التفت الى الزائرات قائلا بلهجة المعتذر : هل تسمحن لى ؟ ...

وما ان صارا وحدهما حتى اكتست ملامح الارملة مونتيل بعلام المريضة من جديد ، بيد ان الطبيب اغضى واستمر يتكلم بلهجته الداعبة وهو يضع الادوات التى كان يخرجها من حقيبته على المنضدة ...

ولم تلتصق الارملة ان قالت مستعطفة : ارجوك يادكتور .. لا حقن بعد ... ان جسمى اصبح كالقربال ...

فقال الطبيب باسملا : ان الحقن هى اعظم اختراع لكى ياكل الاطباء ..

فابتسمت مثله قائلة وهى تلمس عجزها : صدقنى ... هذا الجزء كله ملتهب ... ولا أستطيع حتى لمسه ...

- لا تلمسيه اذن ...

فقالت وقد زادت ابتساما : تكلم بعد يادكتور ، حتى ولو يوم لاحد فقط ...

فكشف الطبيب عن ذراعها لقياس ضغط الدم قائلا :
- ان طبيبى المعالج يمنعنى من هذا ... الجد الشديد مضر
للقلب ...

ولما اتم قياس الضغط قال وهو يتفحص وجهها بامعان شديد ،
بعد ان وضع زجاجة حبوب بيضاء على المنضدة :
- اذا كنت لا تريدن حقنا أخرى ، فلن نعطيك هذه الحقن ...
خذى فقط حبة من هذا كل ١٢ ساعة ... انت فى حالة صحية
احسن منى ...
فأبدت الارملة اشارة متضجرة قائلة : لم اكن مريضة فى اى
يوم ...

فرد الطبيب قائلا : وانا اصدقك ... لكن لابد لنا ان نخترع شيئا
لكى نبرر فاتورة الاتعاب ! ...

فسألته متجاهلة تعقيبيه : هل يجب ان الزم الفراش ؟..
فأجاب الطبيب : بالعكس .. اننى احظر هذا تماما .. انزلى الى
غرفة المعيشة واهتمى بضيوفاك كما يجب ...
ثم اضاف بابتسامة مأكرة : وفضلا عن هذا ... هناك أشياء
كثيرة يمكن الكلام فيها ...

فهمت قائلة : رحماك ياربى ! .. لا تكن ثرثارا مثلهم ! ... لابد ان
تكون انت الشخص الذى يضع اللصقات !..
استطاب الدكتور جيرالدو هذه الفكرة ... وفى طريقه الى الخروج
اختلس نظرة الى حقيبة السفر الكبيرة الموضوعة فى ركن غرفة النوم
وقال لها وهو لدى الباب :

- هاتى لى معك هدية عند عودتك من رحلتك حول العالم ..
فردت الارملة وهى تهتم بتصنيف شعرها : طبعا يا دكتور ..
لكنها لم تنزل الى الزائرين ... ولزمت الفراش الى ان انصرف
آخرهم ... وبعدها ارتدت ملابسها ، وعندما حضر مستر كارميكل
وجدها تاكل قرب باب الشرفة الموارب ...

وقد ردت على سلامه دون ان ترفع عينيها عن الشرفة ، قائلة :
- فى اعماق نفسى ، أحب تلك المرأة ... انها باسلة ..
فارسل كارميكل بصره أيضا شطر بيت الارملة آسيز ، حيث كانت

الابواب والنوافذ لم تفتح بعد فى الحادية عشرة ... وقال :
- ان لهذا علاقة بطبيعتها .. فامراة لها مثل جوفها ، الذى خلق
لانجاب الذكور فقط ، لا يمكن الا ان تكون هكذا ، كما وصفتها ...
وتحول بنظره الى الارملة مونتييل ، واضاف قائلا :
- وانت ايضا مثل زهرة ...
فابتسمت ابتسامة مشرقة ، ثم قالت :
- هل تعرف شيئا ؟ .. ان الدكتور جيرالدو مقتنع باننى مجنونة .
- ما هذا الكلام !؟ ..
فاومأت الارملة براسها تأكيدا ، ومضت تقول :
- ولن يدهشنى اذا كان كلمك عن طريقة لارسالى الى مستشفى
المجانين !..

لم يدر كارميكل كيف يتخلص من هذا الجرح ، وقال :
- اننى لم اخرج من بيتى طيلة الصباح ...
وتهالك كارميكل فى المقعد الوثير المجاور للفراش ... لقد
تذكرت الارملة مونتييل هذا المقعد ، فبين جوانبه هوى جوزيه
مونتييل مصابا بنزيف مخى قبيل ربع ساعة من وفاته ...
على انها لم تلبث ان تخلصت من هذه الذكرى قائلا :
- هل تكلمت مع صديقنا الطيب ساباس ؟..
والواقع ان كارميكل امضى يومى الجمعة والسبت وهو يجس
نبض دون ساباس ويسبر اغواره العميقة محاولا ان يستشف رد فعله
اذا عرضت تركه جوزيه مونتييل للبيع ... وقد ابدى لها كارميكل
ان دون ساباس بدا على استعداد للشراء ...
استمعت الارملة مونتييل الى هذه البيانات دون تبرم ... وقالت
فى النهاية : اذا لم يتم هذا يوم الاربعاء القادم ، فليكن الاربعاء
الذى بعده ... وعلى اى حال فى على استعداد للارتحال عن البلدة
نهائيا قبل انصرام شهر أكتوبر ...
انتزع العمدة مسدسه من جرابه بحركة خاطفة من يده اليسرى
... وكانت عضلاته حتى آخرها متاهبة لاطلاق النار ، حين
استفاق تماما وعرف فى الطارق شخص القاضى اركاديو ...
اما القاضى فقد جمد مسمرا ...
وقال له العمدة وهو يرد المسدس الى مكانه : لا تتصرف مثل هذا
مرة اخرى ابدا ...

واستلقى على مقعد القماش المنطوى ثانية وهو يقول : ان حاسة
السمع عندي تكون مشحودة عن آخرها وانا نائم ...
فقال القاضي أركاديو : كان الباب مفتوحا ...
كان العمدة قد نسي اغلاق الباب عند الفجر ... فقد كان في
أشد التعب الى حد انه ارتدى في المقعد وثام في الحال ...
— كم الساعة الآن ؟

فأجاب القاضي أركاديو متهدجا : قريبة من الظهر ...
فقال العمدة : اننى اكاد أموت من شدة حاجتى الى النوم ...
وتشاءب طويلا .. وبدا له كان الوقت توقف .. وعلى الرغم من
طول يقظته ولياليه الساهرة ، استمرت عملية « اللصقات الفاحشة »
... وفي هذا الفجر ذاته وجد قصاصة ورق ملصقة على باب غرفته
بهذه الكلمات : « لا تضيع بارود رصاصك هباء منثورا يا حضرة
اللازم » ... وفي الشارع سمعهم يقولون بصوت عال ان القائمين
بالدوريات الليلية ذاتهم كانوا يضعون « اللصقات الفاحشة » قتلا
لوقت في دورياتهم المضجرة ... وبدا للعمدة ان البلدة كلها تضج
بالضحك ...

قال له القاضي أركاديو أخيرا : قم بنا لنأكل شيئا ...
لكن العمدة لم يكن جائعا ... كان يريد ان ينام ساعة أخرى ويأخذ
حماما قبل الخروج ... أما القاضي أركاديو ، الذى كان نشطا
منظيفا ، فقد كان في طريق العودة الى داره لتناول الغداء ... وعند
مروره باب العمدة الذى الفاه مفتوحا ، فقد دخل لكي يطلب تصريحا
بالمروور في الشوارع بعد سريان حظر التجول ...
فقال العمدة ببساطة ، وان كان بلهجة ودية :
— لا ... الأفضل ان تبقى آمنا في بيتك ...
أشعل القاضي سيجارة وراح يتأمل لهيب الثقاب حتى انطفأ دون ان
يفتحه عليه بكلام ، فأضاف العمدة قائلا :

— لا تحمل كلامى على محمل سيئ ... صدقنى اذا قلت لك انى
أود ان نتبادل مكانينا ، لكي اذهب الى الفراش في الساعة الثامنة
ساء واقوم من النوم عندما يحلو لى ...
فرد القاضي أركاديو بنبرات شفت عن السخرية :
— طبعاً ... ماكان ينقضنى الا أب عطوف آخر وأنا في الخامسة
والثلاثين ! ..

فاتجه العمدة نحوه وراحا يتبادلان النظرات فترة ، فقال العمدة:
- أيها القاضي ... لن أعطيك التصريح المطلوب ... مفهوم ؟ ..
عض القاضي على طرف السيجارة وهم أن يقل شيئا ، بيد أنه
كتم المحاولة .. وسمعه العمدة وهو يهبط السلالم متمهلا ... فناداه
... ولما لم يجب صاح فى أثره :
- مازلنا أصدقاء ! ...

لكنه لم يسمع ردا ... وظل يتسمع الى أن أغلق الباب ، فبقى
العمدة وحيدا مع ذكرياته مرة أخرى ...

انه لم يبذل أى مجهود للنوم ... غدا بعيدا عن النوم فى منتصف
النهار ، غارقا فى وصول بلدة ظلت عدائية ومستعصية على كل فهم
ونفوذ الى بواطنها ، بعد طول السنين التى كرت وتعاقبت منذ أن
تسلم زمام الامور فيها وتولى تصريف مصائرها ... فى فجر ذلك
اليوم البعيد ، عندما هبط الى الياسة خلصة وليس معه سوى
حقيبة ملابس عتيقة من الكرتون محزومة بحبل ومزودا بأمر بات للعمل
على اخضاع البلدة بأى ثمن - فى ذلك الحين كان هو الذى قضى عليه
أن يدوق معنى الرعب والارهاب ... كان شقيقه الوحيد هو رسالة
موجهة الى شخص مغمور من أنصار الحكومة ، كان عليه أن يلقاه فى
اليوم التالى وهو جالس بالشورت قرب باب صومعة أرز ..
وبالتعليمات المبلغة اليه ، وبالصرامة البالغة القسوة للسفاحين الثلاثة
المأجورين الذين رافقوه - تم أداء المهمة التى وكلت اليه ... ولو
انقشع عنه وقتها حجاب الغيب ولم تلتف حوله خيوط العناكب
لالتكاثفة التى نادها الزمن التفافا حوله - لاحتاج الى ومضة بصيرة
خاطفة لكى يعرف أى الفريقين أخضع الآخر وطوعه لارادته ...

وظل يحلم وهو مفتوح العينين قرب الشرفة التى كان يلذعها المطر
حتى بعد الساعة الرابعة بقليل ... وعندئذ استحم ولبس كسوة
المبدان وقام بتفتيش روتينى فى الثكنات ، وفجأة ألقى نفسه واقفا
عند ناصية ويداه فى جيوبه ولا يدرى ماذا يفعل ...

وبعد جولة على غير هدى سمع لفظا فى الشوارع لم يتبين مبعثه الا
بعد أن رحم الى الثكنات ... فارتقى السلالم وثبا دون أى التفات
الى الجماعات التى كانت حول الباب ... وتقدم للقائه جندي
بوليس وناولوه قصاصة ورق ، فلم يحتج الى أكثر من نظرة لكى
يعرف مضمونها ... وقال له الجندي ..

- كان يوزعها على الناس علنا ...

جرى العمدة فى الردهة وفتح أول زنزانه ووقف ويده على لسان الباب يتفحص فى العتمة حتى استطاع أن يبصر ، فرأى فتى فى نحو العشرين ، بوجه ناحل مبقع من اثر الجدرى ، وكان يلبس « كاب » البيزبول وعلى عينيه نظارة مكسورة الزجاج ...

- ما اسمك !...

- بيب ...

- بيب ماذا ؟

- بيب امدور

تأمله العمدة فترة محاولا أن يتذكر ... وكان الفتى جالسا على الافريز الاسمنتى المتخذ فراشا للسجناء ، وبدا هادئا ... ولم يدخل العمدة الى الزنزانه ، وظل يرمقه بنظره ساهما ، ثم قال له وهو يهم باغلاق الباب ...

- حسن يا بيب ... لقد اوقعت نفسك فى مصيبة ...

وأدار المفتاح فى القفل ووضع فى جيبه ، وانتقل الى غرفة الانتظار لكى يقرأ المنشور السرى ويعيد قراءته ...

لقد جلس قرب الشرفة المفتوحة يلطم البعوض ، بينما كانت الانوار فى الشوارع المهجورة تضاء تباعا ... كان يعرف سكنة الاصيل هذه ... فيما مضى من الزمان ، اثناء اصيل هادىء كهذا ، كانت له القوة فى عنفوانها والسلطان فى ذروته ... ولم يثمالك أن قال لنفسه بصوت مرتفع :

- اذن لقد عادت المنشورات السرية !..

نعم عادت ... وكانت مطبوعة على الوجهين ، وكان يمكن معرفتها فى أى مكان وفى أى زمان بذلك الاهتزاز الذى يشوب أكثر المطبوعات السرية ...

وظل العمدة يفكر طويلا فى العتمة وهو يبسط ويطوى الورقة قبلما اتخذ قراره ... وفى النهاية وضعها فى جيبه وبحث عن مفتاح الزنزانه ونادى قائلا : روفيرا ! ...

فجاء من خلال الظلام الرجل الذى يثق فيه ، فأعطاه المفتاح قائلا :

— تول أمر ذلك الولد ... حاول اقناعه بأن يعطيك أسماء الأشخاص الذين يدخلون الدعاية السرية الى البلدة ... واذا لم تستطيع ان تعرف بطريقة معقولة ، فحاول ناية طريقة تراها ان تجعله يتكلم ...

فذكره الرجل بأنه مكلف بالعمل في الدورية هذه الليلة ... فقال العمدة :

— انس هذا ... لا تشغل بالك بأى شىء حتى تصلك أوامر جديدة ... ومسألة أخرى ...

قالها كأنما هبط عليه الهام ، وأضاف : اصرف أولئك المتطوعين الموجودين في الحوش ... لن تسير دوريات هذه الليلة ...

واستدعى الى مكتبه المصفح الجنود الثلاثة الذين لزموا الثكنات بأمر منه ... فأمرهم الآن بارتداء الكسى العسكرية التي احتفظ بها في دولابه الخايس ... واثناء قيامهم بهذا جمع الخرطوش الفسارغ الذي كان قد وزعه على متطوعي الدورية في الليالى السالفة ، ثم أخرج من الخزانة ذخيرة حية ... وأخيرا قال لرجاله وهو يفتش على البنادق لكى يعطيهم أحسنها :

— هذه الليلة ستكلفون بالدورية ... وليس مطلوباً منكم ان تفعلوا شيئاً سوى أن تجعلوا الناس يعرفون انكم أنتم الافراد المكلفون فى الشوارع ...

وبعد أن تقلدوا أسلحتهم وزع عليهم الذخيرة الحية ، ثم وقف امامهم قائلاً :

— لكن استمعوا جيداً لشيء واحد ... ان اول واحد منكم يرتكب عملاً طائشاً سوف يعدم رمياً بالرصاص امام سور الحوش مفهوم ؟ ...

أصفى الرجال الثلاثة الى آخر كلمة منه وهم يضعون الرصاص فى خزانات البنادق ... وكان اثنان منهم بملامح الهنود ، والثالث أشقر شديد زرقة العينين وادنى الى المردة ... وما لبثوا أن وقفوا « انتباد » قائلين : مفهوم يا حضرة الملازم ...

ثم اردف العمدة بلهجة غير لهجته العسكرية :

— ومسألة أخرى ... ان أبناء اسرة آسيز موجودون فى البلدة ، ولن يكون شيئاً غريباً اذا صادفتم واحداً منهم فى حالة سكر

واستعداد للدخول في مشاكل ... فمهما يحدث ، لا تورطوا انفسكم معه ... مفهوم ؟ ..

- مفهوم يا حضرة الملازم ..

قالوها هذه المرة بغير لهجتهم السالفة .. فاختمت العمدة قائلا :

- اذن فقد عرفتم كل شيء ... انتبهوا بكل حواسكم ...

عندما أغلق الاب انجيلو الكنيسة قبل موعدها المسائي بساعة بسبب حظر التجول ، نفذت الى انفه رائحة كريهة ... ولما بحث عسرف مصدرها ... فان ترينيداد التي مرضت منذ يوم السبت لم ترفع الفئران الميتة ... فتولى بنفسه تنظيف المصائد ، ثم انتقل الى بيت مينا على مسافة مربعين سكينين من الكنيسة ...

فتح له « توتوفيزبال » الباب بنفسه ، وفي الردهة الصغيرة المعتمدة شاهد مينا وأمها وجدتها العمياء يشربون شيئا دافئا معطرا ومينا عاكفة على زهورها الصناعية ...

قال الاب انجيلو لرب الاسرة : اننى جئت لكى تسمحوا لمينا بالحضور والاشراف على المصائد ابتداء من الغد ، نظرا لمرض ترينيداد منذ يوم السبت ..

ابدى توتو فيزبال موافقته .. بينما قالت العجوز العمياء :

- المكتوب هو المكتوب ... سوف يجرى الدم فى الشوارع ، ولن توجد قوة بشرية تقدر على وقفه ! ..

رمقها القس بنظرة رثاء ... فقد كانت طاعنة فى السن ، شديدة شحوب الوجه ، وبدا كأن عينيها الخامدتين تنفذان الى اعماق الاشياء ... ومالبثت مينا أن ردت متهكمة : وسوف نسبح فى الدماء ! ...

ولما بقى القس واقفا قدم اليه توتو فيزبال مقعدا ودعاه الى الجلوس ، فشكره قائلا :

- ان موعد بدء منع التجول سوف يدركنى فى الشارع ...

وعندما فطن الى السكون المطبق فى البلدة ، اردف قائلا : يبدو ان الوقت جاوز الثامنة ...

ثم علم القس بما جد ... فبعد سنتين من خلو الزنانات من

المعتقلين ، زج بالشاب بيبي امدادور فى السجن ، وغدت البلدة
تحت رحمة ثلاثة مجرمين ... ولقد أغلق الناس البيوت على أنفسهم
منذ الساعة السادسة ...

قال الاب انجيلو اخيرا : هذا غريب ... غريب أن تفلت الامور من
اليدين على هذه الصورة ...

فقال توتو فيزبال : كان لابد ان يحدث هذا عاجلا او آجلا .. ان
البلاد كلها أصبحت أشبه ببيت العنكبوت ...

اتجه القس الى الباب ، فقال توتو فيزبال : ألم تر المنشورات
السرية ؟ ...

توقف انجيلو مرتبكا ، وقال : مرة أخرى ؟ ..

فقال توتو فيزبال : عادت منذ حوالى أسبوع ... فقد جاءنا
منشور هنا ، دون ان يعرف أحد من جاء به ... انت تعرف
طبيعته ...

أوماً الاب انجيلو ايجابا ، بينما مضى توتو فيزبال يقول : يقولون
فيه أن كل شيء هو نفسه كما كان من قبل ... فقد تغيرت الحكومة
ووعدوا بالامن والضمانات ، فصدقهم الناس اول الامر ... ولكن
الموظفين هم نفس الموظفين ...

وتدخلت ام مينا قائلة : وهذا صحيح ... فهذا نحن تحت حظر
التحول من جديد ، وانطلق أولئك المجرمون الثلاثة فى الشوارع ..

فقال توتو فيزبال : لكن هناك شيء جديد .. فهم يقولون الآن
أنهم ينظمون جماعات كحرب العصابات ضد الحكومة فى داخلية
البلاد من جديد ..

فقالت العجوز العمياء : هذا كله مكتوب ومقدر ...

وقال القس ساهما : هذا غريب ... لابد لنا أن نعترف بأن الحالة
قد تغيرت فعلا ...

ثم استدرك مصححا كلامه : او على الاقل تغيرت حتى هذه
الليلة ...

وبعد ساعات ، لم يتمالك الاب انجيلو وهو راقد مستيقظا فى
حرارة ناموسية البعوض ، ان تساءل ان كانت الاحوال قد تغيرت فعلا
فى غضون التسعة عشر عاما التى أمضاها فى هذه الإبرشية .. فعلى

بعد قليل من بيته ذاته كان يسمع جلية الاحذية العسكرية وصليل
الاسلحة التي كانت فى اوقات شتى تسبق اطلاق البنادق - فيما عدا
انه فى هذه المرة كانت الاحذية تبتعد ، ثم تعود الى المرور بعد
ساعة ، ثم لا تلبث ان تبتعد من جديد دون اطلاق اى رصاص ...
وبعد وقت لم يعرف مداه ، غلبه النوم بتأثير الاعياء والسهـر ،
وعرف ان الديوك كانت تصيح منذ مدة ...

الفصل التاسع

حاول ماتيو آسيز أن يعرف الوقت عن طريق مكان وصياح الديوك
وفى النهاية عاد الى الواقع قائلا :
- كم الساعة الآن ؟..

مدت نورا جاكوب ذراعها فى العتمة وتناولت المنبه الفوسفورى
القرص من فوق المنضدة الليلية ... وما أن قرأت الرقم حتى
استيقظت تماما ، قائلة : الرابعة والنصف !..
- يا للشيطان !..

ووثب ماتيو آسيز من الفراش ... وراح يتحسس بقدميه فى
الظلام موضع حذائه ... وقال :
- كان يمكن أن يفاجئنى ضوء النهار !...
- شئ لطيف اذن ! ..

قالت هذا وهى تضيء المصباح لتبدو معالم ظهره واضحة ، ثم
أضافت :

- ... وكنت تضطر الى البقاء محبوسا هنا حتى الضحى !...
كانت متجردة تماما ، الا من طرف الملاة ... وحتى صوتها فقد
رنة الجراة والاستهتار المعهودة عندما اضئ النور ... ولما لبس ماتيو
آسيز حذاءه بدا طويلا موفور القوة ... وأما نورا جاكوب التى كانت
تستقبله على فترات طيلة عامين ، فكان يخامرها الاحباط لسوء
الحظ الذى يجعلها تستقبل فى الخفاء رجلا بدا لها مناسط الاعتزاز
والزهو ...

ولم تلبث أن قالت وهى جالسة فى الفراش :

- سيأتى يوم أمل فيه هذا التخفى ، وأعلن للعالم كلها علاقتنا .
ولم ينظر نحوها الا بعد أن ارتدى ملابسه ... ولما فطنت الى
تجردها رفعت الملاة حتى رقبته ، واستطردت تقول :

- لم أر الوقت بوضوح ... واذن لنفطر فى الفراش ونبقى هنا
حتى بعد الظهر ... بإمكانى أن أعلق بنفسى قصاصة من تلك
القصاصات التى يقولون أنها فاحشة !...

فضحك ضحكة عريضة قائلا : اذن لمات بنيامين حسرة ... مارايك في هذا ؟ ..

فقات : تسطيع ان تتصور شعورى ، وانا أنتظر موت بنيامين ...

وراته يلوح لها مودعا عند الباب ، فقالت : حاول ان تعود ليلة عبد الميلاد ...

فوعدها ... وسار على اطراف اصابعه فى الحوش وخرج الى الشارع من الباب الرئيسى ... ف شعر بالظل الثلج يرطب صدره .. وما ان وصل الى الميدان حتى ساج صوت ينادى : قف ! .. وسلط ضوء بطارية على عينيه .. فحول وجهه جانبا ... واذا صوت العمدة ينبعث من حيث لا يرى خلف دائرة الضوء :
- آه ! .. هذا انت ؟ .. اقادم أم ذاهب ؟ ..

واطفا البطارية ... وراه ماتيو ، مصحوبا بثلاثة من جنود البرليس ... وبدا نضر الوجه نظيفا ، وبندقيته الرشاشة على كتفه .. فرد ماتيو اسيز قائلا : قادم ...

وتقدم العمدة لينظر الى ساعته فى ضوء مصباح الشارع .. كان ثمة عشر دقائق باقية على موعد رفع الحظر فى الخامسة ... فوجه الى رجاله أمرا برفع الحظر ، ووقف منتظرا انتهاء دوى النفير ، الذى كانت له رنة محزونة فى هذا الفجر ... وبعدئذ صرف جنود البوليس ورافق ماتيو آسيز الى الميدان ... وقال له :
- انتهينا اخيرا من مشكلة الملصقات ...

كانت نبراته التى شفت عن الارتياح تنم عن الاعياء ، فقال ماتيو :

- هل قبضوا على الشخص الذى كان يضعها ؟ ...

فأجاب العمدة : ليس بعد ... لكننى انتهيت لتوى من القيسام بالجولات الاخيرة ، ويمكننى ان اؤكد لك اليوم ، للمرة الاولى ، ان قصاصة واحدة لن ترى نور الفجر ... كانت المسألة محتاجة فقط الى تشديد الحزام حول بنطلوناتهم ! ..

وعند وصولهما الى الباب الرئيسى لبيت الاسرة ، سبق ماتيو آسيز لربط الكلاب ... وكانت الخادومات قد بدان الحركة فى المطبخ ... وعندما دخل العمدة تلقته الكلاب المقيدة فى سلاسلها بعاصفة

نباح عاتية ... ووجدتهما الارملة آسيز بعد ذلك يشربان القهوة فوق الدكة الحجرية فى المطبخ وقد انتشر الضوء من حولهما .. فقالت الارملة :

- رجل يستيقظ قبل الطيور ... رفيق طيب ، لسكنه زوج ردىء ...

وعلى الرغم من تبسط الارملة فقد شفت ملامح وجهها عن ضنى السهر والسهد ... وقد رد العمدة على تحيتها ، ومالبت أن رفح البندقية الرشاشة من الارض وعلقها على كتفه ، فقالت الارملة :

- اشرب ماشئت من القهوة أيها الملازم ، لكن لا تحضر أية بنادق الى بيتى ...

فقال ماتيو آسيز باسم : بالعكس ... يجب أن تستعيرها منه للذهاب بها الى القداس ... ألا ترين هذا ؟..

فردت امه قائلة : لست بحاجة الى « كركوبة » كهذه للدفاع عن نفسى فى الطريق ... ان العناية الالهية معنا .. ان آل آسيز كانوا على الدوام من اهل الايمان والتقوى ...

ولم يلبث العمدة ان استأذن قائلا : لا بد لى من النوم .. ليست هذه حياة بنبر !..

وشق طريقه بين الدجاج والبط والديوك الرومية التى بدأت تجناح البيت ... فأخذت الارملة آسيز تهشها الى الخارج ، بينما ذهب ماتيو آسيز الى غرفته ، ثم استحجم ، وغير ملابسه ، وخرج ثانية لاسراج بقله ، بعد ان سبقه أخوته الى الغابة عند الفجر ...

وكات الارملة آسيز تشرف على أقفاص الطيور عندما لاح ابنها فى الحوش ... فقالت له :

- تذكر ... هناك فرق بين ان تحافظ على سلامتك وبين ان تتقرب ممن لاينبغى ان تتقرب منه ...

فقال ماتيو آسيز : انه جاء يشرب قدح قهوة ... وسرنا معا نتكلم حتى وصلنا الى هنا دون ان ندرى تقريبا ...

كان عندئذ قرب نهاية المدخل ، متجها بنظره الى امه ، بيد انها لم تستدر نحوه وهى تتكلم ، وبدا كأنها تخاطب الطيور وهى تقول :

- سأقول لك هذا فقط ... لا اريد ان يأتى الى بيتى اناس من القتلة السفاحين ...

وبعد أن فرغت من الاقفاص تماما ، أقبلت على ابنها بكليتها ،
قائلة :

- وانت ... أين كنت ؟! ..

بدا للقاضي أركاديو هذا الصباح أنه اكتشف نذرا مشؤمة في
الحلقات الدقيقة المتعاقبة التي تؤلف الحياة اليومية ... وما لبث
أن قال لزوجته معربا عن هواجسه وقلقه : أن مجرد التفكير في
احوالنا يجلب الصداع ...

كان صباحا مشمساً ... ولأول مرة منذ أسابيع متعددة فقد
النهر صورته التهديدية المندرة بالخطر ورائحته الشبيهة برائحة
اللحم النبيء ...

وذهب القاضي أركاديو الى دكان الحلاق ، فلتقاه هذا قائلا :

- العدالة تمشي عرجاء ، لكنها تبلغ هدفها رغم ذلك ..

وكان الحلاق يسمح المرايا عندما جلس القاضي في الكرسي لحلق
شعره .. وبعد أن أغمض عينيه فترة قال في ضيق :

- ان السكون في هذه البلدة يجعلها مثل مدينة أشباح ..

فقال الحلاق : أنتم ياناس أردتموها هكذا ... أيام زمان ، في
صباح يوم اثنين كهذا ، كنت أحلق خمسة رءوس على الأقل وقتها .
أما هذا الصباح فان هدية المنعم لى هى أنت فقط ...

وتردد الحلاق برهة قبل أن يضيف :

- من قبلكم ايها الناس ، كانت هذه بلدة طيبة ، مثل كل البلاد ،
أما الآن فهي أسوأها جميعاً ...

فرد القاضي قائلا : أن كنت تقول هذا ، فلانك تعرف أنه لا ضلع
لى معهم ...

ثم أردف دون رغبة في العدوان : هل تجسر أن تقول مثل هذا
الكلام للملازم ؟ ...

اعترف الحلاق بأنه ماكان ليحجر ، وقال :

- أنت لا تعرف ماذا يكون الحال ، عندما تستيقظ صباح كل يوم
متأكدا أنهم سيفتلونك ، ثم تمضى عشر سنوات ولا يقتلونك ..

فقال القاضي أركاديو : لا أعرف .. ولا أريد أن أعرف ..

وأمال القاضي رأسه ... وبعد صمت طويل انشأ يقول :

— هل تعرف شيئا يا « جوارديولا » ؟ ... ان الملازم يفرق في
الاعماق كل يوم في هذه البلدة ... وهو يزيد غرقا بمضى الوقت بعد
ان اكتشف متعة لا رجعة له عنها : فشيئا فشيئا ، ودون ما ضجة ،
اصبح يفتنى ويزيد غنى ... واراهاك انه ان يكون مسئولا عن مزيد
من القتل وسفك الدماء بعد الآن ...
— هل تظن هذا ؟ ..

فقال القاضي باصرار : اراهاك على مائة بيزو مقابل واحد ...
في هذه اللحظة ليس هناك ماهو افضل واربح له من السلم ...
فرغ الحلاق من قص الشعر ، وامال الكرسي الى الوراء ، وقلب
« الفوطة » دون كلام ، وعندما تكلم اخيرا ، شابت لهجته رنة
قلق ، اذ قال :

— قرب ان تكون انت الذى يقول هذا الكلام ، وان تقوله
لى ...

فقال القاضي اركاديو : لست هي المرة الاولى التى قلته فيها ..
فقال الحلاق : ان الملازم صدقك الحميم ...
فقال القاضي اركاديو برصانة : قل لى شيئا واحدا يا جوارديولا ..
ماهو انطباعك عنى ؟ ..
ندا جوارديولا يحلق لاقن القاضي ... وقد فكر برهة قبل ان
يحب قائلا :

— حتى الآن ، يمكننى ان ارى انك رجل يعرف انه راحل ، وانه
يريد ان يرحل ...

فقال القاضي باسم : نامكانك ان تستمر في هذا التفكير ..
واغمض القاضي عينيه مستسلما للحلاق ... وبعد ان فرغ هذا
دس قصاصة ورق في جيب قميص القاضي ، وقال له :
— انت مخطيء في شيء واحد فقط يا حضرة القاضي ... سوف
تقع احداث حسام في هذه البلاد ...

تحقق القاضي انهما لان الان وحدهما في الدكان ... بل بدا له من
استتباب السكون في هذه الفترة الصباحية التى لم تحاوز التاسعة
والنصف ، وكانهما في البلدة وحدهما .. ومالبت ان اخرج القصاصة
من حيبه وقراها ...

اما الحلاق فقد ادار ظهره اليه وعكف على ترتيب الرف ، وقال
مقتبسا عبارات من القصاصة : « سنتان من الخطب ، ومع ذلك
لا تزال حالة الطوارئ هي نفسها ، والرقابة على الصحافة هي
نفسها ، والموظفون القدامى هم انفسهم » ...

ولما رأى في المرأة أن القاضي أركاديو توقف عن القراءة ، قال له :
- مررها على من حولك ...

فأعاد القاضي القصاصة الى جيبه قائلا :
- أنت شجاع جدا ...

فقال الحلاق : لو أنني كنت أخطيء في معرفة الناس على حقيقتهم
لامتلا جسمي بالرصاص منذ سنوات .. ثم أضاف قائلا ..
- وتذكر شيئا واحدا يا حضرة القاضي .. لن يكون في قدرة أحد
أن « يوقفها » هذه المرة ...

وعندما خرج القاضي أركاديو من دكان الحلاق شعر بجفاف شديد
في حلقه ، فعرج على البار ، وطلب كأسين شربهما متعاقبين ... ثم
كرر الطلب ... وعند الكأس الرابعة قال له دون روك باسما :
- بهذا المعدل سوف يحملونك على الاكتاف ، مثل مصارع ثيران !
فابتسم القاضي بدوره ، بيد أن عيشه ظلتا خامدين ... وبعد نصف
ساعة ذهب الى دورة المياه حيث تبول ، وقبل أن يخرج القى المنشور
السرى في المرحاض وجذب « السيغون » ...



عندما كان دون ساباس يجهز افطار الطيور قيل له ان مستتر
كارميكل جاء لزيارته ، فهمس في اذن زوجته :
- قولوا له اننى نائم ...

وفعلا لم تمض عشر دقائق حتى كان مستغرقا في النوم ... وعندما
استيقظ ، عاد الجفاف الى الهواء من جديد ، وقدما البيت مثقلا
بالحر ... وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ...

وانتظرت زوجته حتى استيقظ ... فوضعت الحقنة في الماء
المغلي وتولى دون ساباس حقن نفسه بالانسولين في فخذه ...
وتمدد ثانية في الفراش ... وبعد نصف ساعة نهض متمهلا
وندا يرتدى ملابسه ، ثم سأل زوجته :

- ماذا قال كارميكل ؟ ..

- قال انه سيعود فيما بعد ...

ولم تتادلا الحديث الا بعد أن جلسا الى المائدة ، فقالت له :

- ما الذي يريدك كارميكل ؟ ..

لم يرفع دون ساباس رأسه عن الطبق ، واجاب : النقود ...
وماذا غيرها ؟ ...

فتنهذت المرأة وقالت : هذا ماخطر لى ... مسكين كارميكىل ...
أنهار من النقود تحرى بين يديه منذ سنوات بعيدة ، ويعيش على
الصدقات ! ..

ثم أردفت مستعطفة : اعطه مايريد ياساباس ... وسيجزيك الله
... كم يريد ؟ ..
- مائتا بيزو ...
- مائتا بيزو ؟ ..
- تصورى ! ..

كان من عادة دون ساباس أن يخلد الى الراحة فى مثل يوم
الاثنين هذا ، يعكس يوم الاحد الذى كان انشط أيامه عملا ، فيجلس
فى اغفاء مستروحا هواء المروحة الكهربائية ، فى حين تسمن قطعان
مواشيه وتتكاثر فى مزارعه لتربية المواشى .. بيد أنه فى عصر يوم
الاثنين هذا لم يستطع أن يجد الراحة التى كان ينشدها ، وفى هذا
قالت زوجته :
- انه الحر ...

فرد عليها قائلا : ربما ... لم يحدث مثل هذا الحر من قبل فى
أكتوبر ...

فقالت الزوجة : منذ خمسة عشر عاما ، عندما جاء حر مثل هذا
حدث زلزال ... هل تتذكر ؟ ..

فأجاب دون ساباس ساهما : لا أتذكر ... أنت تعرفين اننى لاأتذكر
أى شىء ... فضلا عن هذا فلست فى حالة نفسية تسمح لى بأن
أتكلم عن المصائب ، فى هذه الساعات ...
فتركته وغادرت المكتب بسكون ... وبعدها أخذته سنة من
النوم ...

وعندما فتح عينيه ، تجسد أمامه شخص العمدة ، كأنما كان
امتدادا لحلم طويل .. وكان ينتظره حتى يستيقظ ... وقد قال
له باسمه :

- ان رجلا مثلك ، لا يجب أن ينام وبابه مفتوح ..
لم يلدادون ساباس أية بادرة تنم عن انزعاج ، وقال :
- لك انت ، أبواب بيتى مفتوحة دائما ...
ومد يده لكى يثق الجرس ... ولكن العمدة استوقفه بإشارة ..
فقال دون ساباس : الا تريد بعض القهوة ؟ ..

فأجاب العمدة وهو يدبر نظره فى الفرفة بنظرة اشتياق :
- ليس الآن مباشرة ... كان الوجود هنا مريحا اثناء نومك ...
كان كما لو كان فى بلدة مختلفة ...

فجعل دون ساباس يفرك عينيه بظهر أصابعه ، قائلا :
- كم الساعة الآن ؟ ..
نظر العمدة الى ساعته ، وأجاب : تقرب من الخامسة ...
وعلى الاثر غير جلسته فى المقعد ، وطرق الموضوع الذى جاء لاجله
قائلا بنعومة ؟

- هل يمكننا ان نتكلم اذن ؟ ..
فأجاب دون ساباس : اظن اننى غير مخير ...
فراح العمدة بقول : على كل حال فليس ماسأقوله سرا على أحد
... قل لى شيئا واحدا يادون ساباس .. كم رأسا من المواشى
الملوكة للأرملة مونتيل استبعدتها ووشمتها بعلامتك الخاصة منذ
ان عرضت ان تبيع لك ؟ ..

هز دون ساباس كتفيه قائلا :
- ليس عندى أقل فكرة ...
فقال العمدة : انت تعرف ان شيئا كهذا له اسم معروف ...
فكان دون ساباس دقيقا فى الوصف ، اذ أجاب : تهرب ...
فأيده العمدة قائلا دون ان يغير نعومة لهجته :
- بالضبط .. فلنقل ، على سبيل المثال ، انك استبعدت مائتى
راس فى ثلاثة أيام ...

فقال دون ساباس : ياليتها كانت كذلك ...
فقال العمدة : فلنقل مائتى رأس .. انت تعرف ماهى اللوائح ..
خمسون بيزو سن الراس ضريبة بلدية ...
- أربعون ...
- خمسون ...

أبدى دون ساباس اشارة تنم عن الازعان ... وكان مستندا بظهره
الى المقعد الدوار وهو يدبر الخاتم المرصع بالحجر الاسود المصقول
حول اصبعه ، مركزا عينيه على رقعة شطرنج وهمية ...
وكان العمدة يراقبه باهتمام مجرد من كل رحمة ، ومالبت ان
استطرد قائلا :

- على اننا في هذه المرة لن نترك الامور تتوقف عند هذا الحد ..
فانه منذ هذه اللحظة فصاعدا ، أصبحت كافة المواشى المملوكة لتركه
جوزيه مونتييل ، حينما يكون مكانها ، تحت حراسة حكومة البلدة ..
وعندما انتظر دون جدوى اى رد فعل ، تولى البيان قائلا :
- ان تلك المرآة المسكينة ، كم تعرف . جنت تماما ...
- وماذا عن كارميكل ؟ ..

فأجاب العدة : كارميكل معتقل منذ ساعتين ...
جعل دون سباس يتفرد فيه عندئذ بنظرات قد تنم عن الولاء أو
التبذل ... ثم ، دون أدنى بذير ، تفجر كيانه الضخم فوق المكتب
بضحكة عنيفة لا ممسك لها ، وقال :
- ياها من معجزة يا حضرة الملازم !.. لا بل ان هذا كله يبدو في
نظرك مثل حلم ! ..
كان الاب انجيلو عائدا من جولته بعد الظهر عندما شاهد الدكتور
جيرالدو يحاول أن يضع المفتاح في قفل باب مكتبه ، فقال له
باسما :

- ارايت يادكتور ؟.. حتى لكى تفتح بابا ، فانك محتاج الى عون
الله ...

فرد عليه الطبيب باسماء بدوره : او الى نور بطارية ...
وادار المفتاح في القفل ثم وجه كل اهتمامه الى الاب انجيلو قائلا :
- مهلا يا أبى ... لا أظن أن كبلك يعمل كما ينبغي ...
- لا أظنك ترى هذا ؟ ...

بيد أن الطبيب قاده الى مكتبه واضاء النور قائلا : ليس كثيرا
يا أبى أن تترك خمس دقائق لبذلك .. دعنا نفحص ضغطك ..
كان الاب انجيلو فى عجلة ، بيد أنه رضخ تحت الحاح الطبيب ..
ولم يفصح وجه الطبيب عن شيء بعد أن أتم قياس ضغط الدم ..
وفى هذه الأثناء كان الاب انجيلو يدير نظره فى أرجاء الحجرة متفحصا
مابينها من رسوم وأدوات طبية ، وقد غمغم قائلا :

- أنت محتاج الى صورة قديس أيضا فى هذه الحجرة ...
فقال الطبيب وهو ينظر الى الصورة المعلقة على الجدران :
- ليس هنا بالضبط ... الحاجة الى صورة القديس مطلوبة فى كل
مكان بالبلدة ...

وبعد أن أعاد الطبيب جهاز قياس الضغط الى مكانه قال :
- لابد أن تعرف شيئاً يا أبى ... فان ضغط دمك جيد جداً ..
فقال الاب انجيلو : هذا ما كنت أتصوره ... اننى لم أحس بأننى
على مايرام كاحساسى بهذا فى شهر أكتوبر ...
فرد عليه الطبيب قائلاً : ومع ذلك فاننى قلق عليك ...
لابد أن تعترف بأن واجباتك اليومية ليست هى الشيء الامثل
بالنسبة لشهر أكتوبر كهذا ...
فقال القس : ان العمل بالاورام الالهية ملزم .
فأدار الطبيب ظهره اليه لكى يتطلع من خلال النافذة الى النهر
القائم ، ومالبت أن قال :
- لا يبدو أنه من التكاليف الدينية تلك المساعى الجاهدة وعلى طول
السنين لتغطية غريزة الناس بالدروع ، مع تمام العلم بأنه تحت هذا
السطح يجرى كل شيء مجراه ...
وبعد فترة توقف طويلة تساءل الطبيب :
- ألم ينتهياً عندك الانطباع بأنه فى خلال الايام القليلة الماضية ،
اصبح عمل العمدة الذى ذاب عليه بكل قسوة وبلا أدنى رحمة قد
بدا يتفسخ ويتهاوى ؟ ..
فأجاب الاب انجيلو : ان هذا الانطباع كان عندى كل ليلة على مدار
حياتى ... وهذا مايجعلنى ابداً كل يوم بقوة مجددة ..
ونفض قائماً وقد رأى الساعة تقترب من السادسة وهو يشعر
بضيق شديد ، وفى النهاية استأذن منصرفاً واغلق الباب خلفه
برفق ...
ولم يستطع الاب انجيلو أن يركز فى صلواته ... وعندما كان يغلق
الكنيسة جاءتته مينا وأخبرته أن فأراً واحداً فقط هو الذى وقع فى
المصيدة فى خلال يومين ... فكان الانطباع عنده هو أنه بفياب
ترينيداد قد تكاثرت الفئران الى الحد الذى أصبح يهدد بتقويض
المبنى ... ومع ذلك فان مينا كانت قد نصبت المصائد ، ووضعت
سماً فى الجبن ، وجعلت تتبّع أثر الفئران الصغيرة ، وسدت الجحور
الجديدة التى ساعدها هو بنفسه فى اكتشافها بالقار ...
قال لها فى النهاية : ضعى شيئاً من الإيمان فى عملك ، وسوف
تأتى الفئران الى المصائد كالحملان ...

وذهب يتقلب مرارا فوق المرتبة العارية محاولا النوم ... وفى
الوهن الذى ران عليه فى هذه اللحظة برز له بجلاء ذلك الاحساس
بالاجباط الذى نوه عنه الطبيب فى حوارهم معه ... كانت علائمه فى
ذلك القلق الجاثم فى كل مكان ، ثم هجمة الفئران فى الكنيسة ، ثم
حالة الشلل المروعة المترتبة على اعلان حظر التجول - كل هذه
العلائم قد تآزرت وتآمرت عليه ، حتى لكأن قوة عمياء جذبتة فى دوامة
لكى تبتعث من قرارتها أرهب ذكرى فى حياته : فعند وصوله الى
البلدة لأول مرة ، أيقظوه فى منتصف الليل لمباشرة الطقوس الدينية
الاخيه لنورا جاكوب ... وفى غرفة أعدت لاستقبال الموت ، تلقى
اعترافا مروعا ، فاهت به فى هدوء ، وتفصيل دقيق ... فقد كشفت
له المرأة المحتضرة أن زوجها ، نستور جاكوب لم يكن والد الابنة التى
ولدت توا ... فاشتراط الاب انجيلو ألا يتم الاحلال من الخطيئة الا
بعد تكرار الاعتراف والاقرار بالندم والتوبة فى حضور زوجها ...

الفصل العاشر

طوى عمال السيرك قلوبهم وجمعوا ادواتهم . وما ان حل الفجر حتى كانت النساء والصفار من أسرة السيرك يتناولون الافطار بين الحقائق الكبيرة المحزومة ، بينما انهمك الرجل في نقل الحيوانات المفترسة الى ظهر الزوارق الكبيرة وعندما اطلقت الزوارق صفيها الاول ، كانت بقايا النيران المشبوبة فوق الارض التي كانت ساحة السيرك هي الاثر الوحيد الذي يشهد بان وحوشا قد مرت بهذه البلدة

وكان العمدة لم ينم ليلته ، وبعد ان راقب تحميل انقاض السيرك من الشرفة ، خرج يختلط بالناس في زحام الميناء وما زال بكسوة المذار ، وعيناه متأثرتان من قلة النوم ، ووجهه متصلب بسبب احية عمرها يومان

وعندما ابصره رئيس السيرك من ظهر الزورق ، صاح نحوه :
- هالو يا حضرة الملازم . . . اننى تارك لك مملكتك . . .
فاقترب العمدة من حافة الرصيف ، وصاح بدوره في مودة فاتحا ذراعبيه :

- انا آسف يا جنرال . . . املئ ان تكون امينا وتخبرهم بسبب رحيل السيرك . . .

واستدار العمدة الى الجمهور وشرح لهم بصوت عال :
- اننى ألفت الترخيص الممنوح له لانه رفض اقامة حفلة مجانية للأطفال ! . . .

وغطت الصفارة الاخيرة للزوارق وضجيج المحركات رد رئيس السيرك . . . فانتظر الرجل حتى اتمت الزوارق دوراتها في وسط النهر ، وعندئذ مال فوق الحاجز وصاح بأعلى صوته مستعينا بيديه كميكروفون :

- الوداع يا ابن . . . !

لم يتأثر العمدة ، وانتظر ويداه في جيوبه الى ان تلاشى صوت المحركات ، وبعدها سلك طريقه بين الجمهور وهو يتتسم ، ودخل الى دكان التاجر الشرقى . . .

كانت الساعة تناهز الثامنة ، وكان التاجر قد بدأ يجمع سلعه المعروفة قرب الباب ، فقال له العمدة :
- انت أيضا راحل اذن ؟ ..

فقال التاجر وهو ينظر الى السماء : بعد فترة قصيرة ... سينزل المطر ...

فرد عليه العمدة قائلا : ان المطر لا ينزل أيام الاربعاء ...
وأسند مرفقيه الى المنصة ووقف يراقب السحب الكثيفة التي كانت تمر فوق الميناء الى أن أتم التاجر رفع سلعه وطلب من زوجته ان تعد القهوة ... ومالبث العمدة أن تنهد قائلا :
- بهذا المعدل سوف نضطر الى « استعارة » الناس من البلدان الاخرى ..

وأخذ يشرب القهوة متمهلا ... وقال له التاجر ان ثلاث عائلات اخرى قد رحلت عن البلدة ، وحسب تقديره يكون مجموع العائلات الراحلة خمسا في اسبوع واحد ... فقال العمدة :
- سوف يعودون عاجلا أو آجلا ...

وأخذ يتفرس في العلامات المبهمة المتخلفة في قاع قرح القهوة وهو ساهم ، وأخيرا أضاف :
- اينما ارتحلوا وذهبوا ، فسوف يتذكرون أن جبلهم السرى مدفون في هذه البلدة ...

وعلى الرغم من تنبؤاته عن حالة الطقس ، فقد اضطر الى البقاء في المتجر بعد أن مرت سحابة غزيرة المطر أغرقت البلدة في طوفان مدى دقائق .. وبعدها قصد الى ثكنات البوليس حيث وجد مستر كارميكل ما يزال جالسا في مقعد صغير بلا ظهر في وسط الحوش وقد أغرقه وابل المطر ...

لكنه لم يهتم به ... وبعد أن تلقى تقريرا من جندي البوليس المكلف بالحراسة ، أمر بفتح الزنزانة التي بدأ ان الفتى ييب أمامور نائم فيها ووجهه على الارض الحجرية ... فأداره بقدمه ، ولاحظ في رثاء خفي وجهه الذي شوهه الضرب المتواصل ...
ثم سأل : منذ متى أكل ؟ ..
- منذ الليلة قبل الفائتة ...

فأمرهم برفعه ... فتولى ثلاثة جنود جر الجسد من تحت الابط في الزنزانة وأجلسوه على الافريز الاسمنتي البارز من الحائط

بارتفاع قدمين ... وشوهد فى الموضع الذى كان فيه الجسد ظل
ممدود ...

وبينما أمسك به اثنان منهم فى وضع جلوس ، أسند ثالثهم رأسه
بجذب الشعر .. وكان يخيل للرأى انه فى عداد الاموات ، لولا
تنفسه غير المنتظم ، وعلائم الاعياء البالغ على شفثيه ...

ولم يلبث بيب أمادور بعد أن تخلص عنه رجال البوليس أن فتح
عينيه ، وتشبث بحافة افريز الاسمنت باللمس ... وعلى الاثر رقد
على الافريز بتأوه أجش ...

وترك العمدة الزنزانة بعد أن أمرهم باعطائه شيئاً يأكله وتركه
ينام فترة ، ثم أضاف قائلاً :

— وبعد ذلك واساوا عملكم معه الى أن « يطفح » بكل مايعرفه ..
ولا أظن انه سيقوى على المقاومة طويلاً ...

ومن الشرفة أبصر مستر كارميكل فى الحوش ممسكاً وجهه بين
يديه ومكوماً على نفسه فوق المقعد الصغير ... فقال :

— روفيرا ... اذهب الى بيت كارميكل وقل لزوجته ان ترسل
له بعض الملابس ...

ثم اضاف بلهجة صارمة : وهاتوه الى المكتب ...

وبدأ العمدة يقلبه النوم وهو مستند فوق المكتب ، عندما طرخوا
عليه الباب ... لقد جرى بمستر كارميكل مرتدياً بذلة بيضاء وقد
جف تماماً ، باستثناء حذائه الذى كان منتفخاً كحذاء رجل غريق ..
وقبل أن يتفرغ له العمدة أمر جندي البوليس أن يحضر له حذاء ..
فرفع مستر كارميكل ذراعه للرجل قائلاً :

— أنا على مايرام هكذا ...

ثم التفت الى العمدة بنظرة اعتزاز بالنفس قائلاً :

— هذا هو الحذاء الوحيد الذى امتلكه ...

طلب منه العمدة أن يجلس ... وقبل ذلك بأربع وعشرين ساعة
اقتيد مستر كارميكل الى المكتب المصفح وجرى إخضاعه الى استجواب
مكثف عن الموقف الخاص بتركة مونتبيل ... فأعطى تقريراً مفصلاً ..
وفى النهاية ، عندما كشف العمدة عن اقتراحه لشراء التركة بثمن
يحدده خبراء البلدية ، أعلن كارميكل عن تصميمه الباقي ألا يسمع
بهذا الى أن يتم التصديق على الوصية وتوثيقها رسمياً ...

وبعد ظهر هذا اليوم ، وبعد يومين من الجوع والتعرض لقسوة

الطبيعة ، كشف جوابه عن ذات التصميم البات الذى لا هـوادة فيه ...

قال له العمدة : انت بفل يا كارميكل .. اذا انتظرت الى ان يتم توثيق الوصية ، فان ذلك اللص دون ساباس سيكون قد وشم علامته على مواشى مونتبيل كلها ...
فما كان من مستر كارميكل الا ان هز كتفيه ... فقال العمدة بعد توقف طويل :

- لا بأس ... كلنا نعرف انك رجل نزيه ... لكن تذكر شيئاً واحداً ... فمند خمس سنوات أعطى دون ساباس لجوزيه مونتبيل كشفاً كاملاً بأسماء الاشخاص المتصلين بجماعات حرب العصابات .. وهذا هو السبب فى أنه كان الزعيم الوحيد من زعماء المعارضة الذى يمكنه ان يبقى فى البلدة ...
فقال مستر كارميكل بشيء من التهكم : هناك شخص آخر بقى . هو طبيب الاسنان .

تجاهل العمدة هذه المقاطعة ، واستمر يقول :
- هل تظن أن رجلاً ، استطاع ان يبيع قومه ، سوف يهتم اذا جاست اربعاً وعشرين ساعة فى المطر أو الصحو ؟ ..
أطرق مستر كارميكل برأسه وجعل ينظر الى اظافره ، بينما جلس العمدة فوق المكتب : وقال فى النهاية بصوت لين :
- بالاضافة الى هذا ، فكر فى أطفالك ...
لم يعرف مستر كارميكل ان زوجته وولديه الاكبر سنا قد زاروا العمدة فى الليلة الماضية وأنه وعدهم باطلاق سراحه فى خلال اربع وعشرين ساعة ...

فقال مستر كارميكل : لا تشغل بالك ... انهم يعرفون كيف يهتمون بأنفسهم :

ولم يرفع رأسه حتى سمع العمدة يذرع المكتب من أقصاه الى أقصاه جيئةً وذهاباً .. فتنهّد وقال له :

- لا تزال امامك طريقة أخرى يا حضرة الملازم ...
وقبل ان يواصل كلامه ، تطلع الى العمدة بوداعة تامة ، قائلاً :
- اضربنى بالرصاص ...

لم يتلق أى رد ... وبعد برهة كان العمدة فى غرفته مستغرقاً فى نوم عميق ، وأعيد مستر كارميكل الى المقعد الصغير الذى بلا ظهر فى عراء الحوش ...

على بعد مربعين سكنيين من الشكنات ، كان سكرتير المحكمة في
منتهى السعادة ... فقد أمضى الصباح ناعسا في خلفية المكتب ،
وفجأة ، ودون أن يستطيع تحاشي النظر ، وقع نظره على صدر
ربیکا آسيز وهي خارجة من الحمام ... كانت الصورة مثل ومضة
برق وقت الظهر ... ففجأة فتح باب الحمام ، وأسرعت المرأة
الغائنة التي لم يكن يكسوها أكثر من منشفة حول رأسها ، تفلق
النافذة وقد نلت منها صرخة مكتومة ...

لقد أمضى السكرتير نصف ساعة وهو يقاسى مرارة هذا الخيال
في المكتب الحسير الضوء ... وحوالي الساعة الثانية عشرة وضع
القفل على باب المكتب والذكرى تنهسه ...

وعند مروره بمكتب التلغراف أشار اليه وكيل المكتب وقال له :
- سيكون عندنا فسيح جديد ... فقد كتبت الاملة آسيز
رسالة في هذا الى رئيس كنائس المنطقة ...

فلوح له السكرتير مستنكرا وقال : ان أعظم فضيلة في الانسان هي
ان يعرف كيف يكتم السر ..

وعند ناصية الميدان التقى بمستر بنيامين البقال الذي كان يفكر
مرتين قبل الاقدام على عبور برك المياه امام دكان .. فقال له
السكرتير :

- ياليتك تعرف يامستر بنيامين !..

فقال بنيامين : ماذا ؟..

فرد السكرتير : لاشيء ... سرف احمل معي هذا السر الى القبر
... هز بنيامين كتفيه ... وراقب السكرتير وهو يقفز فوق
البرك بخفة الشباب ، الى حد انه ألقي بنفسه في هذه المغامرة
وحذا حذوه ...

وفي فترة غيابه جاء شخص ما ووضع له « عمود » الطعام في
خلفية الدكان ... فتناول الغداء متمهلا ... وبينما كان يستعد
لنصب أرجوحة النوم سمع صوت طارق دخل الى الدكان .. وجاءه
صوت يغلّب عليه النوم يقول : هل مستر بنيامين موجود ؟..

فمد رقبته ونظر ... فرأى امرأة مرتدية ثوبا أسود وشعرها
ملفوف في منشفة ... كانت أم بيب امادور ...

قال لها بنيامين : أنا غير موجود .

فقال المرأة : بل هو أنت ..

فقال لها : انا عارف .. لكن كأننى غير موجود ، لانى اعرف لماذا
تبحثين عنى ...

وقفت المرأة مترددة لدى الباب الخلفى الصغير ، بينما كان بنيامين
يكمل نصب الأرجوحة ... ومع كل نفس تردده المرأة كان ينبعث
صغير خافت من رثيها ...
قال لها بنيامين بغلظة : لا تقفى هناك ... اذهبى ، أو ادخلى ..
احتلت المرأة المقعد المجاور للمائدة وأخذت تنتحب فى صمت :
فقال لها :

.. معذرة ... كان يجب أن تعرفى أنك تورطيننى بوقوفك هكذا
أمام انظار الجميع ..

كشفت أم بيب امدور عن رأسها وجففت دموعها بالمنشفة ...
وبعد أن تأكد مستر بنيامين من متانة الحبال التى تشد الأرجوحة ،
التفت الى المرأة ، قائلا :

— أنت اذن تريدنى أن أحرر لك عريضة استرحام قضائية ..
فاومات المرأة ايجابا ... فاستطرد قائلا :
— لا بأس ... أستمرى فى اعتقادك فى عرائض الاسترحام ...
ثم خفض صوته وأضاف يقول : فى هذه الايام لا تتوقف العدالة
على عرائض الاسترحام ، بل تتوقف على رصاص البنادق ! ..
فقال المرأة : كل الناس يقولون هذا الكلام .. لكن الواقع هو
اننى الام الوحيدة التى زج بابنها فى السجن ..

وأثناء كلامها أخذت تفك عقد المنديل الذى كان فى يدها حتى هذه
الآونة ، وأخرجت منه بضع أوراق بنكنوت منداة بالعرق ، كانت فى
مجموعها ثمانية بيزنات .. وقد قدمت اليه المبلغ قائلة :
— هذا كل ما أملكه ...

نظر مستر بنيامين الى النقود ... وما لبث أن هز كتفيه وتناولها
ووضعها فوق المائدة ، قائلا :

— انا عارف انه لا فائدة ... لكننى سألبى طلبك لكى أثبت أمام
الله اننى رجل لا يأس من رحمته ...

فشكرته المرأة صامتا ، وعادت الى بكائها المخفت ...
وقال بنيامين بنصحها : على أى حال حاولى أن تطلبى من العمدة
أن يسمح لك بمقابلة ابنك واقناعه بأن يقول مايعرفه ... بغير هذا
تكون كمن تلقى العرائض للخنازير ...

ممسحت المرأة أنفها بالمنشفة ، وغطت رأسها ثانية . ثم انصرفت دون أن تدير رأسها ...

وأما مستر بنيامين فقد نام فترة قيلولته حتى الساعة الرابعة ... وعندما خرج إلى الحوش ، لكن يغتسل ، كان الطقس قد تكشف وامتلا الهواء بالنمل الطائر ... وبعد أن غير ملابسه ومشط الشمرات القليلة الباقية في رأسه ، خرج قاصدا إلى مكتب التلغراف والبريد لشراء عريضة مدموغة ...

وفي عودته إلى الدكان لكتابة عريضة الاسترحام شاهد مادله على أن شيئا قد حدث في البلدة ... فقد سمع صياحا بعيدا .. وعندما سأل نفرا من الصبية كانوا يجرون عن كئيب ماذا جرى ؟ ردوا عليه دون أن يتوقفوا ... وعندئذ رجع بنيامين إلى مكتب البريد وأعاد العريضة المدموغة قائلا :

- نست في حاجة إليها الآن ... انهم قتلوا ييب امادور ...

راح العمدة وهو نصف نائم يهبط السلالم وثبا من غرفة نوميه حاملا حزامه بده ومزودا كسوته العسكرية باليد الاخرى ... وقد فهم قبل أن يعرف ماذا حدث أنه لابد أن يذهب إلى الشكنات من فوره ...

وفي طريقه كانت النوافذ تغلق في وجهه وهو يمر ... وشوهدت امرأة مفتوحة الذراعين وهي تجرى في الاتجاه المضاد ... وكان النمل الطائر يملأ الهواء ... ومالبث أن أخرج المسدس من حامله واخذ يجري حتى قبل أن يعرف ما حدث ...

كانت جماعة من الفساد نحاول اقتحام باب الشكنات ... ووقف بضعة رجال يكافحون لمنعهم من المحاولة ... فأبعدهم العمدة ضربا ، ووقف وظهره إلى الباب ، وصوب مسدسه إلى الجميع قائلا :

- سأطلق النار على أي شخص يخطو خطوة واحدة ! ..

وعندئذ فتح الباب جندي وكان ممسكا به من الداخل ، شاهرا نذقيته ، وأطلق صفارته .. وعلى الاثر جرى جنديان آخران في الشرفة وأطلقا عدة أعيرة نارية في الهواء ، فتفرق الجميع إلى أطراف الشارع .. وفي هذه اللحظة ظهرت المرأة لدى الناصية وهي تعزى مثل كلب ، فعرف منبا العمدة أم ييب امادور ... وبوئبة كان داخل الشكنات ، ومن السلالم أمر الجندي قائلا :

- تول امر هذه المرأة ..

وفي الداخل كان السكون تاما ... ولم يكتشف العمدة حقيقة ماحدث الا بعد ان أزاح جانبا جنود البوليس الذين كانوا يسدون مدخل الزنانة ووقع نظره على ييب أمادور ... كان ممددا على الارض ، مكوما على نفسه ، ويداه بين فخذه ... وبدا شاحبا ، لكن لم تكن به آثار دماء

وبعد ان أقنع العمدة نفسه بعدم وجود جرح فى الجثة . مدد صاحبها على ظهره ، وسوى قميصه ، وشد حزامه ... وعندما استقام فى وقفته تماثل الى الهدوء ، بيد أن الصورة التى واجه بها رجال البوليس شفت عن بوادر اعياء ... وقال : من فعل هذا ؟ ...

فرد الجندى المارد الاشقر : كلنا ... انه حاول الهروب ... راح العمدة ينظر اليه مفكرا ، وبدا فترة كأنه لا يجد مايقوله ... ومالبث أن قال :

- لن يصدق احد هذه الحكاية ..

وتقدم نحو المارد الاشقر مادا يده قائلا :

- هات مسدسك ...

فنزح الجندى حزامه وقدمه اليه .. فأبدل العمدة المقدوفين الفارغين بأخرين جديدين ، ووضع الاولين فى جيبه ، ثم أعطى المسدس الى جندى آخر ... أما المارد الاشقر الذى بدا عن كذب وهو صورة للطفونة الساذجة فقد ترك نفسه يقاد الى الزنانة المجاورة ... وهناك خلع ملابسه كلها وأعطائها للعمدة ... والواقع أن كل شيء كان يتم بغير تعجل ، وكان كل واحد يعرف الدور المطلوب منه ، كما لو كانوا فى عرض مقرر ... وفى النهاية أغلق العمدة بنفسه زنزانة الميت وخرج الى شرفة الحوش ، حيث كان مستر كارميكل لا يزال موجودا فوق المقعد الصغير ..

وعندما اقتيد الى المكتب لم يستجب الى الدعوة التى وجهت اليه للجلوس ، وظل واقفا أمام المكتب وقد ابتلت ملابسه مرة أخرى ، ولم يكد يحرك رأسه عندما سأله العمدة ان كان قد أصبح على دراية بكل شيء ...

قال له العمدة : حسن اذن ... اننى حتى الآن لم أجد وقتا للتفكير فيما أنوى أن أفعله ، أو حتى فيما اذا كنت سأفعل شيئا

على الإطلاق ... لكن بصرف النظر عما افعله ، عليك ان تتذكر هذا .
سواء احببت او لم تحب ، فاننا أصبحنا شريكين فى الصفة ، ولابد
ان تدبر هذا ...

كان العمدة يتكلم برصانة ، بل بلهجة شبه دراية .. يسد ان
مستر كارميكل الذى وقف امام المكتب وملابسه ملتصقة بجسده بدا
جامدا خامدا وكأنه لا يعى شيئا مما يقال له ، حتى بعد أن أغلق
الباب المدرع ...

وفى خارج الثكنات وقف جنديان ممسكين بأى بيت امادور من
معصميهما ... وبدا الثلاثة كأنهم فى راحة ... وكانت المرأة تتنفس
بايقاع ساكن وقد جفت عيناهما ... ولكن ما أن ظهر العمدة لدى
الباب حتى أطلقت صرخة مدوية واهتزت بعنف شديد حتى اضطر
أحد الجنديين الى التخلي عنها وسمرها الثانى على الأرض فى وضع
كوضع مصارعة ...

لم ينظر إليها العمدة ، بل اسطحب الجندى الثانى وواجه الجميع
الذى كان يراقب هذا الصراع لدى الناصية ... فقال فيهم دون أن
يقصد احدا بعينه :

- على أحدكم اذا كنتم تريدون تفادى ساهو اسوا ، أن يأخذ هذه
المرأة الى بيتها ..

ثم شق طريقه خلال الجمع بصحبة الجندى وقصد الى المحكمة
... فلم يجد احدا ... وعندئذ ذهب الى بيت القاضى اركاديو ودفع
الباب دون طرق وصاح ينادى القاضى ... فجاءه من الداخل صوت
زوجته التى كانت تعاني من أثقال الحمل :

- اخرج ...

فقال العمدة دون أن يتحرك من الردهة : الى اين ؟
فردت المرأة قائلة : والى اى مكان آخر بذهب ، غير بيوت البغاء ؟
أشار العمدة الى جندى البوليس بالدخول ... ومرا بالمرأة
دون أن ينظرا إليها ، وبعد تفتيش غرفة النوم راسا على عقب
والتأكد من عدم وجود اثر لرجل بها ، عادا الى غرفة المعيشة .. وقال
العمدة :

- متى ذهب ؟ ...

فأجابت المرأة : منذ ليلتين ...

احتاج العمدة الى فترة طويلة للتفكير ، وفجأة صاح :

- ابن الفاجرة هذا ! .. بإمكانه ان يختبيء مائة قدم تحت الأرض

... وبامكانه ان يزحف عائدا الى بطن امه الفاجرة ... لكننا سنسحبه ميتا او حيا ... ان الحكومة لها ذراع طويل ... !
تنهدت المرأة ، وقالت : استجاب الله لك ، يا حضرة الملازم ..
بدأ الظلام يرخى سدوله ... وكان لا يزال ثمة جماعات يحجزهم البوليس عن بعد من الشكنات ، بيد أن بعضهم سحب أم بيب أمام دور الى بيتها ، وبدأ كأن البلدة في سكينه ...

اما العمدة فقد اتجه مباشرة الى زنزانه القليل ... فطلب من رجاله احضار قطعة من الخيش ، وبمساعدة الجندي المرافق له وضع النظارة والكاب فوق الجثة ولف حولها قطعة الخيش ... وبعدئذ بحث عن قطع من الحبال والسلك في أرجاء الشكنات وربط بها العثة لوابسا من العنق الى العقبين ... وعندما فرغ كان العرق يغمره ، ولكن بدت عليه علائم الارتياح ، وكأنما تخلص من عبء يثقله ...

وعند هذا فقط أضاء نور الزنزانه ، وأمر جندي البوليس قائلا :
- هات المجرفة ، والمعول ، والمصباح ... وبعد ذلك اذهب الى جونزاليز واحفرا حفرة عميقة في الخلف حيث الارض اكثر جفافا ..
ثم اختتم قائلا : وتذكر شيئا واحدا الى آخر حياتك : ان هذا الولد لم يمت أبدا ...

ومضت ساعتان ولم يفرغا بعد من حفر القبر ... ومن الشرفة تأكد العمدة أنه لا أحد في الشارع ، سوى أحد رجاله الذي كان يقوم بالحراسة وحده من ناحية الى ناحية ... وما لبث ان أطفأ نور السلالم ومضى لكي يستريح في اظلم ركن في الغرفة الداخلية ...

ثم أخرجه صوت الاب انجيلو من تأملاته .. فقد سمعه اول الامر يتكلم مع جندي البوليس المكلف بالحراسة ، ثم مع شخص آخر كان بصحبته ، وأخيرا عرف صوت هذا الآخر ... وقد ظل قابعا في المقعد المنطوي انى أن سمع الاصوات من جديد وقد وصلت الان الى داخل الشكنات ، وأعقبها وقع الخطى في السلالم ... وعند هذا الحد مد ذراعه الايسر في الظلام وامسك بالطبنجة ...

وحين رآه الاب انجيلو يظهر عند رأس السلالم توقف ... ومن خلفه بخطوتين جاء الدكتور جيرالدو مرتديا سترة قصيرة بيضاء ومنشأة ، ويده حقيبة .. وقد ابتدر العمدة بلهجة ودية قائلا وهو يتنسم :

- لقد خبيت ظني يا حضرة الملازم ... كنت انتظر منك طوال

ساعات بعد الظهر ان تستدعينى للقيام بتشريح الجثة ...
كان الاب انجيلو يرمق الطبيب بعينه الشفافتين الودعتين ،
وما لبث ان أدارهما الى العمدة ، الذى ابتسم بدوره ، قائلا :
- لن يجرى تشريح ، اذ لا توجد جثة ميت ...

فقال القس : نريد ان نرى بيب امادور ...
استمر العمدة موجه كلامه للطبيب ، جاعلا فوهة الطنبجة الى
اسفل ، فقال :

- وانا اريد ان اراه أيضا . لكن ليس هناك مايمكن ان نفعله ..
ولبث يتسم وهو يضيف : انه هرب ...
تقدم الاب انجيلو خطوة ... فرفع العمدة الطنبجة فى اتجاهه ،
وقال محذرا :

- قف تماما حيث انت ياابى ...
وتقدم الطبيب أيضا خطوة مماثلة ، وقال وهو لايزال يتسم :
- استمع الى شىء واحد ياحضرة الملازم ... من المستحيل اخفاء
الاسرار فى هذه البلدة ... منذ الساعة الرابعة بعد الظهر فصاعدا ،
وكل انسان يعرف أنهم فعلوا مع ذلك الشاب نفس الشىء الذى فعله
دون سانس مع الحمير التى باعها ...
- انه هرب ...

وكان العمدة يراقب الطبيب ، فلم يكذب وقتا لوضع نفسه فى
وضع استعداد عندما تقدم الاب انجيلو فجأة خطوتين رافعا ذراعيه
... واذا العمدة يحرك صمام الامان بضربة من طرف يده ويقف
منتصبا منفرج الساقين ، صائحا : قف ! ..

جذب الطبيب القس من كفه ... واخذ القس يسعل ... وقال
الطبيب بلهجة شديدة لأول مرة :

- لتكلم على المكشوف ياحضرة الملازم .. ان هذا التشريح لابد
من اجرائه .. الآن لابد لنا من تفسير غموض نوبات الاغماء التى
تصيب السجناء فى هذه الزنزانة ...

فقال العمدة : يادكتور ... اذا تحركت من مكانك ، فسأرميك
بالرصاص .. وهذا ينطبق عليك أيضا يا ابى ...

ووقف ثلاثتهم جامدين . ثم استطرد العمدة قائلا للقس :
- بالاضافة الى هذا ، يجب ان تسر يا ابى .. فان الولد كان هو
الشخص الذى يضع « الملصقات الفاحشة » ...
فتح الاب انجيلو فمه بدهشة لكى يعقب ، لكن نوبة السعال

اسكتته ، بينما واجههما العمدة قائلا :
-- الآن استمعوا لما أقول ... سأبدأ العد ... ومتى وصلت الى
« ثلاثة » ، فسأطلق النار على هذا الباب بعينين مغمضتين ...
وما عليكما الا أن تعيا هذا ...
ثم أضاف موجهها تحذيره للطبيب خاصة : لقد انتهى وقت المزاح
... نحن في حالة حرب ، يادكتور ..
جذب الطبيب الاب انجيلو من كمه مبعدا ... وبدأ هبوط
السلام دون أن يدبر ظهره للعمدة ... ومالبث أن بدأ يضحك عاليا
وهو يقول :
-- انى أحب هذه الطريفة باجنرال ... الآن قد بدا كل منا
يفهم الآخر ...
بدأ العمدة العد قائلا : واحد ...
لم يسمعا باقى العد ... وعندما افترقا عند ناصية الشكنات .
كان الاب انجيلو مضغضا ، واضطر أن يشيح بوجهه لأن عينيه كانتا
مبلفتين ...
وربت الدكتور جيرالدو على كتفه دون أن يكف عن الابتسام .
قائلا :

-- لا تدهش الى هذا الحد يا أبى ... كل هذا هو الحياة ! ..
وعندما استدار حول الناصية متجها الى بيته ،لقى نظرة على
ساعته في ضوء مصباح الشارع ، فكانت الثامنة الا ربعا ...
لم يستطع الاب انجيلو أن يذوق طعاما ... وبعد أن أعلنت ساعة
حظر التجول جلس الى مكتبه وعكف على تسطير رسالة حارة
استغرقت كل مشاعره الى مابعد منتصف الليل والمطر لا ينقطع ...
وفي صباح اليوم التالى بعد القداس ، وضع الرسالة فى البريد
على الرغم من معرفته انها لن تنقل حتى يوم الجمعة ...
وبعد الظهر عاد ترينيداد المريضة فى بيتها ، ثم انتقل لزيارة اسره
كارميكل .. كانت الزوجة والابنة الكبرى مفتتين ، وكانتا كلما
ذكرتا اسم السجين تعالجان اخفاء مشاعرهما الحقيقية ... أما
الصفار فكانوا سعداء لبعدهم عن شدة ابيهم ، لاعبين بالارنبين اللذين
أهدتهما الارملة مونتيلى اليهما ، فى محاولة لجعلهما يشربان من
كوب ...

ولم يعد أحد يتكلم عن « الملصقات الفاحشة » ... وغدا
موضوعها فى جلة الاحداث الاخيرة مثل حلقة مثيرة فى سلسلة

الماضى ... وقد وجد الاب انجيلو مصداقا لهذا فى جولته المسائية وفى احاديثه فى مكتبه مع جماعة السيدات الكاثوليكيات ..
وقد نام هذه الليلة نوما هادئا ... وقبل بدء الخامسة بعشر دقائق تيقن أنه لا يزال على قيد الحياة ... وكانت مينا تفتح باب الكنيسة بينما كان يدق دقة الناقوس الاولى ... ثم جاءته بعسد فترة وهى تهز العلبة الفارغة فى يدها قائلة : حظ سيء .. ولا فأرا واحدا سقط اليوم فى المصيدة ! ..

- بيد ان الاب انجيلو لم يعرها اهتماما .. فقد طلع النهار صحوا مشرقا ، نقى الهواء ، وكأنه يشير بأنه فى هذا العام أيضا ، سيحل شهر ديسمبر وأعياده فى مواعده المنتظم ... ولم يفتقد الاب انجيلو فى ذكرياته سوى عزف باستور المشحى ... وقال للفتاة المتعلمة :
- خيل الى اننى سمعت عزفا فى الليلة الماضية ...
فقالت مينا مؤكدة : عزف بالرصاص ... لقد استمر اطلاق الرصاص الى ما قبل فترة قريبة ...
- اين ؟ ..

- فى كل مكان ... يبدو أنهم جنوا وهم يفتشون عن المنشورات السرية ... ويقال أنهم رفعوا ارضية دكان الحلاق بالصدفة ، فعثروا على أسلحة ... ان السجن قد امتلأ ، لكنهم يقولون ان الرجال يتجهون الى الغابة الانضمام الى جماعات حرب العصابات ...
تنهد الاب انجيلو ، وقال : لم لاحظ أى شىء ...
واتجه الى الباب الخلفى ، فتبعته التلميذة المترهبة قائلة : وليس هذا كل شىء ... فى الليلة الماضية ، على الرغم من منع التجول وعلى الرغم من اطلاق الرصاص المتواصل ...
توقف الاب انجيلو ، وراح يرمقها بعينيه الزرقاوين البريئتين .. فتوقفت مينا بدورها والعلبة الخاوية تحت ذراعها ، ولاحظ عليها ابتسامة عصبية قبل أن تهم باتمام عبارتها ..

((تمت))

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٨٣/٤٩٥٨

الترقيم الدولى : ٤ - ٥٨ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

السيد / هاشم علي نحاس
جدة - ص ٠ ب رقم ٢٩٣
المملكة العربية السعودية
جدة :

M. Miguel Maccu Cur
B. 25 de Maroc, 990
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL
البرازيل

السيد / عبدالعال بسيوني
زغلول الكويت - الصفاة -
ص ٠ ب رقم ٢١٨٢٣
تليفون ٧٤١١٦٤
الكويت :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoosthrope Road
London S.E 26
ENGLAND
انجلترا :

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثالثة)

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

هذه الرواية

تعفة اخرى تقدمها « بهيات الهلال » بقلم الكاتب الكولومبي «الاشهر جبريل جارسيا ماركيز» الفائزة بجائزة نوبل في الادب حديثا « ١٩٨٢ » ، بعد « الضحية » التي صدرت في ايرل الماضي . واذا كان القراء قد استهوهم هذا اللون الغريب من ادب أمريكا اللاتينية الذي شق طريقه الى مصاف الادب العاليه، فسوف تستهويهم ايضا ماضيا مضاعفا روايته الطويلة هذه التي قدمها المؤلف في صورة بانورامية جمعت أبناء بلدة باسرها تتصارع بينهم غرائب الاحداث والوقائع الدرامية وتتفصّل في نفوسهم عوامل الفساد والجريمة والتبذل والاحقاد والتخفي، وكل ذلك تحت كابوس لعنة ليلية مروعة تقض المضاجع وتهتك اسرار البيوت ، حتى تبلغ ذروتها في كارثة لا نجاة منها الا فيما يراه المؤلف بلوغ بر الأمان، بل ان شخصيات الرواية اشد غرابة من الاحداث ذاتها : العمدة الشيطاني رمز الفساد والافساد - الحسّاق الفيلسوف الذي يتنزع الاسرار من الروس - القاضي المزجج الشخصية الهائم في دنياه الخاصة - طبيب الانسان الذي يتحدى الموت - الارامل المفضيات اللاتي امتلأت حياتهن بالفصائح - عشاق الليل في منازلهم - هازف الفجر الذي تسيل من ألحانه الدماء والدموع - قارئة البخت وغرامياتها الخائبة - الى آخر هذه الشخصيات الغريبة التي يمكن أن تنفرد كل منها برواية كاملة .

بحرياته



www.ibtesama.com